نساء المسلمين

حوار بين كاتبة تركية مسلمة وراهبة فرنسية وفيلسوفة إنجليزية حول المبادئ الإنسانية والعقيدة الإسلامية

بقلم الكاتبة التركية ذائعة الصيت

فاطمة علية هانم

عرض ودراسة وتعليق

محمد ابراهيم سليم

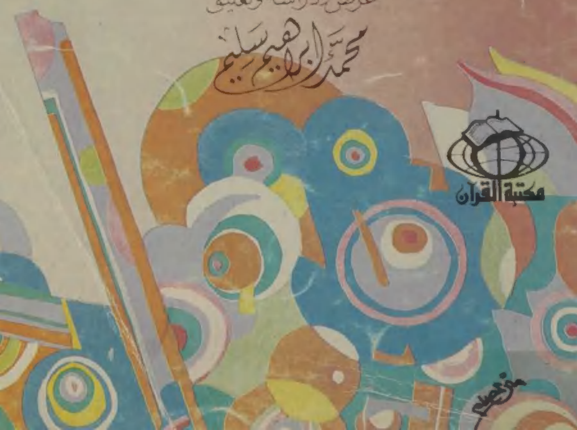

مكتبة القرآن

٢١١٠٦
هـ ف ل

نساء مسلمين

حوار بين كاتبة تركية مسلمة وراهبة فرنسية وفيلسوفة إنجليزية حول المبادئ الإنسانية والعقيدة الإسلامية

بقلم الكاتبة التركية ذائعة الصيت
فاطمة علية هانم

عرض ودراسة وتعليق
محمد إبراهيم سليم

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف : ٢٤٤٦٠٢٣
ترخيص رقم : (٧١)

مكتبة القرآن
للطبع والنشر والتوزيع
٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق
القاهرة - ت : ٧٦١٩٦٢ - ٧٦٨٥٩١

وكيلنا الوحيد بالمملكة العربية السعودية :

مكتبة الساعى

الرياض ت: ٤٢١٥٦٣٦٠ - فاكس: ٤٢١١٤٣٤٠
فرع جدة - تليفون: ٦٥٣٢٠٨٩

جميع الحقوق محفوظة للناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ
كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا
نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا
وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا
مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟
ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

(آل عمران : ٦٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

فى عام ١٣٠٨ هجرية وفى إحدى البيوتات العريقة بالآستانة دارت محاورات بين الكاتبة التركية ذائعة الصّيت « فاطمة عليّة هانم » و« راهبة فرنسية » و« فيلسوفة إنجليزية » حول « قضايا إسلامية » . ولقد أتيح للكاتبة أن تقف على أوهام الأوربيين وفساد ظنونهم المتعلقة بنا - نحن المسلمين - فلم يسعها أن تستر استغرابها فى خفايا القلب بل رأت نفسها مضطرة إلى بيان مادار فى تلك المحاورات فى هذا الكتاب .

وهى قضايا على جانب من الأهمية والخطورة رددها المستشرقون ، ويحملها المبشرون معهم أينما كان هناك مسلمون ! تُرى لو أدار أحدهم حواراً - أو إحداهن - مع مسلم أو مسلمة حول تلك القضايا فماذا يكون جوابه ؟

إن هذا الكتاب وما تضمنه من حوار هامّ يضع أمام عينيك « حقائق الإسلام » و« أباطيل خصومه » ويعطيك القدرة على المواجهة فى وعى وفهم وذكاء وحكمة واقتدار !!

ومن أجل هذا وقع - على محاورتين من تلك المحاورات - الاختيار !!، وتضمنهما هذا الكتاب . إنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور !

فتح الله بالإسلام ومبادئه عيوناً عُمياً ، وقلوباً غلفا وآذاناً صُمّا ، وهدانا جميعا الى الصواب !

كلمة لابد منها

على هامش الحوار الإسلامى المسيحى
قديماً وحديثاً

ما أشبه الليلة بالبارحة !

إن كل من يتابع ما يدور على الساحة اليوم من لقاءات ومناظرات ومحاورات ومؤتمرات للحوار الإسلامى المسيحى – لا يملك إلا أن يعود بفكره إلى أولى حلقات تلك السلسلة ويتابعها واحدة بعد أخرى ؛ ليقف على النوايا ، ويدرك البواعث !!

وليس كتابنا هذا إلا صورة لواحدة من تلك الحلقات – فى أبسط صورها ، وعلى أضيق نطاق ! – وهاهى ذى تكبر وتتعاظم وتتسع كما نقلت إلينا وكالات الأنباء وتحدثت وسائل الإعلام . « ففى باريس عقد مؤتمر للحوار الإسلامى المسيحى على شكل مائدة مستديرة حضره نحو ٦٦ شخصية كبيرة من علماء مسلمين ومفكرين ورجال دين مسيحيين تمهيدا لعقد حوار موسع فى ديسمبر عام ١٩٩٠م فى مدينة « استراسبورج فى فرنسا[(١)]» .

ومثل هذه اللقاءات وذاك الحوار يؤكد الاقتناع المتزايد بأهمية الحوار ، كما يبين أن الطريق مازال مفتوحا لإلقاء الأضواء على الحقائق الثابتة ودحض الأباطيل والأكاذيب وصولا إلى أرضية مشتركة للتفاهم والتعايش السلمى من أجل حياة أجمل ، وعالم أفضل تسعد فيه الإنسانية كلها !

---

(١) صحيفة الأهرام القاهرية فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٩/١٠/٢٧ م تحت عنوان : الحوار الإسلامى المسيحى .. المغزى والمضمون .

وفى غياب الحوار جرت تشويهات للصورة الإسلامية عند الغربيين ، ووقع على الإسلام والمسلمين ظلم كبير ، ورُمُوا بالتخلف والتطرف ! إن هناك قضايا كثيرة تُثْرى الحوار وتُتيح للجميع أن يقضوا على الجوانب الإنسانية التى تضمنتها الدعوة الإسلامية .

وبالوعي والفهم الصحيح لأصول الإسلام وغاياته يستطيع أبناء الإسلام أن يُسْمِعوا العالم كله صوتَهم فى ذكاء وحكمة واقتدار !! عن طريق الحوار !!

نساء الإسلام
من التركية إلى العربية

لم يكد هذا الكتاب ينشر باللغة التركية عام ١٣٠٩هـ حتى أقبل عليه القراء من رجال ونساء .

وترجمه إلى اللغة العربية صاحب جريدة « ثمرات الفنون » تباعاً وقدم له بكلمة جاء فيها :

نســـاء الإســلام
بقلم الفاضلة فاطمة علية خانم[1]

« قرأنا في جريدة « ترجمان حقيقت » تحت العنوان المذكور نبذة من قلم الفاضلة المومأ إليها . وحَضْرتُها من ربات الخِدْر[2]، كريمة بيت عريق بالفضل والمجد ؛ فاخترنا تعريبه[3] لما تَضَمَّنه من الحقائق ، ونشره في إعلان جريدتنا تباعا اعتبارا من هذا العدد . » .

(١) يطلق لفظ « خان » لقبا للسلاطين « وقد يطلق على المسلمين ذوى الأحساب من الأفغان ونحوهم . ومؤنثه « خانم » محرفها : « هانم » يلقب به الأميرات أو كبريات السيدات .

(٢) الخِدر : ستر يعد للمرأة فى ناحية البيت . والمراد : صاحبة الصونُ والعفاف .

(٣) تعريبه : نقله إلى اللغة العربية .

الكتاب والكاتبة

أولا : الكتاب

- السر فى تأليف هذا الكتاب
- مخطوطة الكتاب .
- نساء الإسلام بين النشر والترجمة .
- الكتاب فى طبعته العربية الأولى .
- عرض لما تضمنه الكتاب .

ثانيا : المؤلفة

نســاء الإســلام

السر فى تأليف هذا الكتاب :

تكشف الكاتبة عن ذلك السر فتقول :

« ... بما أننى فى خلال محاوراتى مع بعض السائحات المعتَبَرات ، قد اطلعت على أوهام الأوربيين وفساد ظنونهم المتعلقة بنا ؛ ولم يسعنى أن استر استغرابى من ذلك فى خفايا القلب !!؛ رأيت نفسى مضطرة إلى بيان مادار بيننا من الأحاديث فى المحاورات المذكورة !! »

المؤلفة
فاطمة علية هانم
كريمة العلاّمة جَودت باشا

مخطوطة الكتاب

مخطوطة الكتاب التى رجعنا إليها – إلى جانب الطبعة الأولى القديمة والتى لا تحمل تاريخ الطبع – موجودة بدار الكتب المصرية تصحبها البيانات الآتية :

اسم الكتاب : نساء الإسلام

تأليف : فاطمة علية هانم كريمة العلامة الشهير : « جودت باشا » .

الفـــن : علوم اجتماعية .

ميكروفيلم رقم : ١٧٢١٨ .

[illegible]

بقلم الفاضلة فاطمة عليه

قرأنا في جريدة [illegible] تحت العنوان المذكور نبذة من قلم الفاضلة الموما اليها وحضرتها من ربات الخدر كريمة بيت عريق بالفضل والمجد فاخترنا تعريبها لما تضمنته من الحقايق ونشرها في اعلان جريدتنا تدريجا اعتبارا من هذا العدد :

المقدمة :

لما كان النوع الانساني مدنيا بالطبع ومحتاجا الى التعاون والتعاضد مع بعضه البعض تمكن في كل جهة من عقد روابط الجمعية وبسط بساط المدنية واستكمال حاجاته الضرورية ثم تسنى له بالتدريج استحصال حوايجه الكمالية ايضا وعلى هذا الوجه ظهر اختلاف في اللغات في اي الاطراف ونشا تباين في العرف والتعامل يخالف بعضه بعضا وقد ادى اختلاف

اللسان

الصفحة الأولى من المخطوطة

اللسان والمكان الى إيجاد مباينة كلية بين الملل والاقوام حتى انه من القديم اخذ كل فرد من هاته الملل يعيش فى عالمه الصغير فى حالة العزلة والانفراد لا يعلم شيأ من احوال سواه

▪ اجل ان الملل المذكورة لم تكن خلواً من وسائط المواصلات كالقوافل والسفن الا انه بالنظر الى صعوبة الاسفار البرية والبحرية وقلة المواردات كان اهالى البلاد البعيدة عمر واقفين تمام الوقوف على احوال غيرهم من ابناء النوع الانسانى وكان اذا ظهر حادث فى جهة من اوربا لا يمكن العلم به الا بعد سنة كاملة ومثل ذلك كانت سائر البلاد الاوربية ايضا لا تسمع بحوادث العالم الابعد مرور زمن طويل ::

- ولما انشئت السفن التجارية كثرت المواردات وحصلت السرعة والسهولة فى الاسفار والسياحات زيادة تذكر بواسطة الطرق الحديدية :: ثم اخترع التلغراف فكان واسطة للمخابرات بنسبة هذه السرعة فى الاسفار حتى ان الحوادث التى كانت لا تعلم فى البلاد البعيدة الابعد مضى سنة صار يمكن الوقوف عليها فى خلال ساعة واحدة وبالجملة فان العالم دخل فى طور جديد يختلف عن الطرز الاول وعلى ذلك فان الاوربيين المشتغلين بتحقيق وتدقيق جميع الاشياء وان كانوا قد ابتدأوا فى بذل الجهد رغبة منهم فى الاطلاع على خصوصيات احوالنا لكن تبين لى فى خلال المحاورات التى وقعت بينى وبين بعض النساء الاوربيات من معشرى السواح انهم ظنون الافرنج المتعلقة بنا هو من حيث

الصفحة الثانية

للعيان وفى ذلك أقوال مشهورة

: تكون فى غاية الامتنان .

. فقلت تفضلا وسرت بهما الى محل النساء المفروز عن محل الرجال وهناك اخذنا فى مشاهدة ومعاينة النساء اللاتى يؤدين الصلاة جماعة وكانتا الاثنتان لاتنى عن معانى سورة الاخلاص التى تتكرر بعد كل سلام فاشرحها لهما

. ف . لاجرم ان هذا التكرار ([illegible]) له قدر فان بها الفاظا عظيمة وجميلة جدا

. وعندما قرات الآية الكريمة وهى [illegible] بعد سورة الاخلاص فى آخر سلام التراويح رفع الجميع ايديهن الى العلاء فسألتنى المادامتان بقولهما ما الذى تقرأه المصليات :

. فقلت انها اية من القرآن الكريم وهى حكاية كلام الحواريين ومعناها هكذا . ياربنا قد آمنا بالكتاب الذى انزلته علينا واتبعنا الرسول . . فاكتبنا مع الشاهدين . وهذه الآية تقرا عادة فى نهاية صلاة التراويح التى تقام فى شهر رمضان

: فقالت الراهبة . ما قولكم انتم فى الحواريين

: هؤلاء نعلم انهم من خواص اصحاب حضرة سيدنا عيسى عليه السلام

الراهبة . اتقولون ان حضرة سيدنا عيسى هو ابن الله

: كلا . نقول انه عبد الله ومن كبار الانبياء

. الراهبة . اما تعتقد انه ولد بلا اب

: نعم كما تقدم سابقا ان الحق سبحانه وتعالى خلقه بلا اب على وجه خارق للعادة وخلق حضرة آدم من التراب بلا اب ولا ام وقد عبر عن ادم انه ابن الله في آخر آية من الفصل الثالث من انجيل لوقا . وورد التصريح في التوراة بعد وقعة قابيل وهابيل .

الكتبخانة الخديوية المصرية

الصفحة الأخيرة

نســـاء الإســـلام

بين النشر باللغة التركية والترجمة إلى غيرها من اللغات

١ – نشر هذا الكتاب باللغة التركية أولاً .
٢ – ثم ترجم إلى اللغة الفرنسية ثانياً .
٣ – ثم ترجم إلى اللغة الإنجليزية ثالثاً .
٤ – ثم ترجمه إلى العربية صاحب « جريدة ثمرات الفنون » البيروتية ، ونشره فى صحيفته تباعاً .

الكتاب فى طبعته العربية :

وأخيراً ظهرت طبعته الأولى على نفقة « إبراهيم فارس » صاحب « المكتبة الشرقية » .

وهى طبعة قديمة بلا تاريخ تعوزها الدقة فى الترجمة إلى جانب امتلائها بالأخطاء النحوية والإملائية والأسلوبية . ويضم الكتاب « ثلاث محاورات » تتعلق « الثالثة » بالأزياء والملابس التركية ومدى مسايرتها « للموديلات » الغربية إلى جانب العزف على « البيانو » ومدى إجادة المرأة التركية له مما لا فائدة من ذكره أو إعادة نشره وهذا ما دعانا إلى الاكتفاء بالمحاورتين الأوليين تحت اسم : « **نساء المسلمين** » وفقا لما جاء فى مقدمة الكاتبة عن تخيل وظن الأوربيين الوافدين إلى بلاد الشرق – أن « نساء المسلمين » مظلومات معذورات فراحوا يطلقون ألسنتهم بالمؤاخذات الشديدة» فى هذا الباب .

عرض لما تضمنه الكتاب

يتيح لنا هذا الكتاب رحلة فى نفق التاريخ إلى « القسطنطينية » . أو « الآستانة » أو « استامبول » أو « دار السعادة » لنشهد حوارا إسلاميا مسيحيا وقع عام ١٣٠٨ هجرية فى منزل سيدة من سيدات المجتمع التركى بينها وبين سائحات فرنسيات وإنجليزيات ..

وإذا كان العلامة «أحمد ديدات» قد ملأ الدنيا وشغل الشرق والغرب بمناظراته ، فإن قراء هذه المحاورات تتملكهم الدهشة ، ويستولى عليهم الإعجاب بالطريقة التى أدارت بها كاتبتنا تلك المحاورات .

والكتاب الذى نقدمه تضمنت أصوله ثلاث محاورات **أما الأولى**: فقد كانت بين الكاتبة وسيدتين فرنسيتين : إحداهما نبيلة أوربية كاتبة ، والأخرى راهبة .

جاءت النبيلة الكاتبة إلى تركيا بصحبة الراهبة للوقوف على عاداتها ، وأفكارها ، وعقائدها .

وصرفت الوقت الطويل .. ولم تقصر فى النفقات لتشاهد عيناها ما لم تشاهده ، وتعرف الأشياء غير المعروفة لديها .

أقبلت على تركيا وخلفها رصيد كبير من الثقافة والمعرفة والقدرة على البحث والجدل والحوار إلى جانب تلك الأفكار المسمومة التى روجها المستشرقون عن الإسلام حسدا له وحقدا عليه !

ولقد أثارت مع الكاتبة التركية قضايا على جانب من الأهمية تدور حول : الرّق ، والخدم ، وتعدد الزوجات ، وحق الطلاق المُعْطَى للرجل ، وصيام رمضان وقيامه ، وطعام الأتراك ، و« مريم » و« آل عمران » ومائدة عيسى ، وولادته ، والصلب والرفع ، والأناجيل الأربعة » وبشارة عيسى بمحمد ﷺ .

ولقد حاولت الكاتبة - على قدر معارفها ومعلوماتها - فى ذكاء واقتدار أن تبرز رأى الإسلام فى تلك القضايا فى لباقة ولطف حتى لنراها تحرص على أن تتسم بالمجاملة وأدب الضيافة الشرقية .

إنها محاورة جرت بين سيدتين فى جو من المشاعر الطيبة ، ولكننا نستطيع أن نقول : إنها محاورة بين الشرق والغرب .. أو بين الإسلام والمسيحية تصدت فيها الكاتبة لكل ما اطلعت عليه من أوهام الأوربيين ، وفساد ظنونهم المتعلقة بالإسلام والمسلمين .

ولكن لماذا « تركيا » بالذات ؟!

ويجيب عن هذا التساؤل الأستاذ « حمدى زقزوق » فى كتابه « الاستشراق والخلفية الفكرية » فيقول : « من الصعب على معظم المستشرقين النصارى المشتغلين بدراسة الإسلام - وأكثرهم متدينون - أن ينسوا أنهم يدرسون دينا ينكر عقائد أساسية فى النصرانية ويهاجمها ! ويفنّدُها مثل : « عقيدة التثليث » و« عقيدة الصَّلب والفداء » ! كما أنه من الصعب عليهم - أيضاً - أن ينسوا أن الدين الإسلامى قد قضى على النصرانية فى كثير من بلاد الشرق ، وحل محلها !

ومن هنا نعرف سبب هلع الغرب وفزعه الذى لا حدّ له عندما يشعر بوجود تيار إسلامى فى أى مكان فى العالم أو ما يعرف بـ « الصحوة الإسلامية » ولقد جاء فى تقرير وزير المستعمرات

البريطانى : « أورمسبى غو » لرئيس حكومته بتاريخ ٩ يناير ١٩٣٨م ما يأتى :

« إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هى الخطر الأعظم الذى ينبغى على الامبراطورية أن تحذره وتحاربه ، وليس « الامبراطورية » وحدها بل « فرنسا » أيضاً .

ولفرحتنا فقد ذهبت الخلافة ، وأتمنى أن تكون إلى غير رجعة » .

أرأيت هذا الحقد الدفين على الإسلام والمسلمين ؟! ولا أراك إلا مردداً قول الشاعر العربى :

كلهم أروغ من ثعلب ما أشبهَ الليلةَ بالبارحة !

وأراك تتطلع إلى **المحاورة الثانية** وما دار فيها .. لقد دارت بين الكاتبة وفيلسوفة عالمة إنجليزية المحتد والنشأة .. تجيد عدة لغات .. ولا تتجاوز الثلاثين من عمرها !

ولقد دارت المحاورة الثانية حول : الزواج والطلاق ، والتبنى والحجاب ، وزوجات الرسول ﷺ ، وعلم الهيئة ، ووحدانية الله ، والإنشاد الدينى ، ومدى موافقة دين الإسلام للعقل والحكمة ! وإذا كانت المحاورة الأولى بين فرنسا وتركيا ، فإن المحاورة الثانية بين إنجلترا وتركيا .. ومن يطلع على المحاورة الثانية مع الفيلسوفة الإنجليزية . يجد أنها قد أدارت معها محاورتين فى مجلسين ولذا رمزت إليهما بالمحاضرة « أ » والمحاضرة « ب » . فكأننا أمام ثلاث محاضرات !

وبعد قرن من تلك المحاورة تحمل الأنباء إلينا نبأ محاورة دارت فى « برمنجهام » إحدى المدن البريطانية بين أحمد ديدات وأحد دعاة النصرانية المشهورين الدكتور « أنيس شورروس » فى أكبر قاعة مغطاة شهدتها العين ، بينما دارت محاورتنا هذه فى بيت الكاتبة الكبيرة :

« فاطمة علية هانم » فى جو الضيافة الشرقية ، والآداب الإسلامية ، والمجاملات المرعية ، واتسمت بالهدوء والحكمة .

أما المحاورة الثالثة: فقد دارت بين الكاتبة وصويحباتها التركيات وقد انضم إليهن ثلاث من النساء الفرنسيات ليست لهن تلك الاهتمامات التى بدت على السطح فى المحاورتين الأوليين .

لقد غلب عليها الطابع النسائى فى متابعة أحدث الأزياء والمقارنة بين الزى الشرقى والغربى ومدى اهتمام التركيات بالموسيقى و« البيانو » بصفة خاصة مما لا طائل وراءه ، ولا جدوى من إعادة نشره وإذا كنا قد آثرنا الاكتفاء بالمحاورتين الأوليين عن الثالثة واخترنا لهما عنوانا هو « **نساء المسلمين** » بدلا من « **نساء الإسلام** » فذلك لحرصنا على إبراز الجوانب الإسلامية التى ينبغى أن تكون موضع اهتمام وفهم وإلمام حتى لا تزعزع عقيدتنا أفكار المبشرين والعملاء فى شتى الأنحاء ، ولا تلعب بنا الأهواء .

وميزة هذا الكتاب أنه يغرى بالقراءة ، وأن الحوار يفتح آفاقاً للبحث والدرس .. ويتيح لكل منا أن يفكر فيما يدرأ به تلك الشبهات ، وما يرد به على تلك الاتهامات المغرضة بعيدا عن التكلف والغموض !

وإذا كانت الكاتبة قد قالت كلمتها فى جو من المجاملة ، واللقاء النسائى » وآداب الضيافة ؛ فإن الواجب يفرض علينا أن نقف من ورائها بما يدعم رأيها ، أو يلقى الضوء على رأى الدين فيما ذكرته من قبيل العادات التى لا تمت إلى الدين بصلة !

هذا إلى جانب الكشف عن الخلفية الفكرية للصراع الحضارى فى جميع صوره وأشكاله » وبيان مدى تأثير تلك الأقلام المسمومة التى تهاجم الإسلام – على أفكار الغربيين وتأثرهم بها فى نظرتهم إلى الإسلام والمسلمين .

وإذا كانت المحاورتان قد التزم فيهما الجانب الموضوعى بعيدا عن اتخاذ أسلوب المواقف الجدلية الانفعالية – فإن الأمر الذى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان هو : أن الإسلام بوصفه دين الحق لا يخشى عليه من أى تيارات فكرية مناوئة أيًّا كان مصدرها ، وأيًّا كان شأنها وانتشارها وقوتها ، طالما وجد هذا الدين من أتباعه من يستطيع فهمه فهما سليما ، وإدراك أهدافه ومراميه إدراكاً واعيا ، فإنه إذا توفر مثل هذا الفهم السليم ، والإدراك الواعى ؛ فيستضح أنه لا توجد هناك تيارات فكرية يمكن أن تتحدى الإسلام بل العكس هو الصحيح ، وهو أن الإسلام نفسه هو الذى يتحدى .

أما إذا افتقد الإسلام لدى أتباعه الوعى والفهم الصحيح لأصوله وغاياته ؛ فإن مواقف هؤلاء الأتباع – مهما حسنت النيات – لن تخرج عن مواقف الصديق الجاهل الذى هو أضرُّ بالإسلام من العدو العاقل* !

ومهما يكن من شيء فلقد كان هذا الكتاب « نساء الإسلام » منطلقا أتاح لى إبراز جوانب لا غنى عنها للرجال والنساء على السواء !

ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين

أسأل الله أن يلهمنا الصواب ويهدينا إلى الحق .

محمد إبراهيم سليم

القاهرة فى يوم السبت ٢٨ من ربيع الأول سنة ١٤١٠هـ
الموافق ٢٨ من أكتوبر سنة ١٩٨٩م

* من مقدمة الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى للدكتور محمود زقزوق .

المؤلفة فى سطور

- هى كريمة العلامة جودت باشا المؤرخ الشهير .
- وهى صاحبة القلم الذائعة الصّيت فى الشرق والغرب .
- كان مولدها بالآستانة عام ١٨٦٢م .
- صحبت والدها إلى سوريا مدة أن كان واليا عليها .
- أتيح لها فى تلك الفترة أن تتعلم المزيد من علوم اللغة العربية وبخاصة البيان والبديع والعَروض .
- أقبلت بعد عودتها من سوريا على دراسة اللغة التركية والفارسية ، وأتقنت اللغة الفرنسية .
- تلقت العلوم العقلية من توحيد ومنطق ورياضة عن والدها .
- تلقت دروساً فى التدبير وإدارة المنزل والطهى .
- كان لها أسلوبها المتميز فى الكتابة حيث عرفت بسلاسة العبارة ، ورقة الإشارة .
- بدأت بترجمة رواية لأحد مشاهير الكتاب الفرنسيين تحت اسم مستعار وسمتها « مريم » فنالت الإعجاب والاستحسان من أدباء الأتراك وعندئذ أعلنت اسمها .
- احتفل بها العلامة أحمد مدحت أفندى محرر جرنال « ترجمان حقيقت » وراح يعضدها ، ودارت بينه وبينها مناظرات علمية

وبذلك اشتهرت بين أدباء الأتراك عموما اشتهاراً عظيماً وذاع صيتُها فى الآفاق حتى بلغ البلاد الغربية .

● سمعت بها نساء الأفرنج من السائحات فأقبلن عليها وقصدنها ، وأدرن معها حواراً حول قضايا تتعلق بالإسلام والمرأة ، لما كانت تتمتع به من أدب جم وحسن لقاء وكرم ضيافة ، ولطف حديث ، حتى أصبحت مَعْلماً من معالم الآستانة تفد إليه السائحات ويعدن فى حالة انبهار بعد طول حوار !

● سجلت بقلمها تلك المحاورات وها هى ذى ..

نساء المسلمين

بقلم الكاتبة التركية ذائعة الصيت
فاطمة علية هانم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب :

بقلم الكاتبة الكبيرة فاطمة علية خانم .

بذور التقدم والمدنية :

لما كان النوع الإنسانى مدنيا بالطبع ، ومحتاجا إلى التعاون والتعاضد بعضه مع بعض – تمكن فى كل ناحية من عقد روابط الجمعية[1] ، وبسط بساط المدنية ، واستكمال حاجاته **الضرورية** .

ثم تسنى له بالتدريج استحصال[2] حوائجه **الكمالية** أيضاً .

ما نشأ عن اختلاف اللغات ، وتباين الأعراف :

وعلى هذا الوجه ظهر اختلاف فى اللغات ... ونشأ تباين فى العرف والتعامل يخالف بعضه بعضاً ؛ وقد أدى اختلاف اللسان والمكان إلى إيجاد مباينة كُلِّيَّة بين المِلل والأقوام ، حتى إنه من القديم أخذ كل فرد من هاته الملل يعيش فى عالمه الصغير فى حالة العزلة والانفراد ولا يعلم شيئا من أحوال سواه من البلاد الأخرى . أجل إنّ الملل المذكورة لم تكن خِلْواً فى وسائط المواصلات كالقوافل والسفن إلا أنه بالنظر إلى صعوبة الأسفار البرية والبحرية وقلة المواصلات كان أهالى البلاد البعيدة غير واقفين تمام الوقوف على أحوال غيرهم من أبناء النوع الإنسانى ، وكان إذا ظهر حادث فى جهة من

---

(١) المراد بالجمعية : الجماعة البشرية . والجمعية أيضا طائفة تتألف من أعضاء لغرض خاص وفكر مشتركة . وليس ببعيد عنا فى عصرنا « الجمعية العامة للأمم المتحدة » فى أرقى صور الاجتماع !

(٢) استحصال : طلب الحصول على حوائجه .. وتستعمل الهمزة والسين والتاء للطلب مثل : استعلام : طلب العلم .. واستفهام : طلب الفهم .

أورّبا لا يمكن العلم به إلا بعد سنة كاملة ، ومثل ذلك كانت سائر البلاد الأوربية أيضاً لا تسمع بحوادث العالم إلا بعد مرور زمن طويل !

بداية الاتصال :

ولما أنشئت السفن التجارية كثرت الاتصالات وحصلت السرعة والسهولة فى الأسفار والسياحات وقد ازدادت هذه السرعة والسهولة فى الأسفار والسياحات زيادة تذكر بواسطة الطرق الحديدية .

ثم اخترع « التلغراف » فكان واسطة للمخابرات[3] بنسبة هذه السرعة فى الأسفار حتى إن الحوادث التى كانت لا تعلم فى البلاد البعيدة إلا بعد مضى سنة صار يمكن الوقوف عليها فى خلال ساعة واحدة[4].

وبالجملة فإن العالم دخل فى طور جديد يختلف عن الطرز الأول .

أفكار خاطئة وأوهام بعيدة عن واقعنا !

وعلى ذلك فإن الأوربيين المشتغلين بتحقيق وتدقيق جميع الأشياء وإن كانوا قد ابتدءوا فى بذل الجهد رغبة منهم فى الاطلاع على خصوصيات أحوالنا وطرق معيشتنا لكن تبين لى فى خلال البحث والمحاورات التى وقعت بينى وبين بعض النساء الأوربيات من معتبَرى « السياح » أن ظنون الأفرنج المتعلقة بنا هى من حيث الخطأ والوهم فى صورة مُوجِبَة للتعجب حقيقة !! حتى أننى عندما سمعت هذه

(٣) التخابر وتبادل الأخبار .

(٤) وها نحن نعيش التقدم والمدنية لنشهد رؤية الأحداث لحظة وقوعها أيا كانت على الشاشة الصغيرة ونسمعها من شبكات الإذاعة ! وأصبح للأقمار الصناعية أثرها المباشر فى نقل الأحداث لحظة وقوعها وكأنما نشهدها فى أماكنها !

خبار الكاذبة من المومأ[٥] إليهن تعجبت تعجباً يضاهى استغرابهن تلقينه من الأخبار الفاسدة المغلوطة وظننت أنهن إنما يبحثن عن ييرنا من الملل !!

كتب السياحة وما تتضمنه :

ومع ذلك فإن الكلام الذى سمعته من هؤلاء السائحات إنما هو مندرج فى الآثار الأوروبية المكتوبة على شكل كتب السياحة ! وعلى هاته الحال فإن **كتب السياحات المذكورة ليست من كتب المعلومات الباحثة عن حقائق الأحوال** وإنما أكثر مندرجاتها[٦] تشبه الحكايات الخيالية التى كتبت على طرز القصص « الرومانسية » .

كيف نشأت تلك الأوهام ؟

فهذه الأوهام والخطيئات كيف نشأت ياترى ؟ وهل هى منبعثة عن أغراض الأوروبيين المخصوصة ؟!!

واجبنا أن نفتش عن هذا القصور عندنا !

كلا إن السياح المعتبرين يبذلون قصارى جهدهم ، وينفقون نقودهم فى سبيل الوقوف على الحقائق المنتشرة فى آفاق وأقطار العالم . يستفيد من علمهم واطلاعهم كل فرد من أفراد مواطنيهم فيجب والحالة هذه أن **نفتش عن هذا القصور عندنا – إذ أنه من موجبات الكمال ! – بالتحرى عن قصور الذات** ، ومن يَقِسْ قبائحه بعد مقابلتها على قبائح غيره يكن لاشك فى جانب الحق والصواب ويفُزْ برفعة القدر وعلو الجناب .

---

(٥) المومأ إليهن : المشار إليهن . أومأ : أشار .
(٦) ما تضمنته مما يندرج فيها من أوهام وخيالات لا وجود لها إلا فى ذهن من ألّفوها، وملئوها بالأكاذيب عن الشرق والشرقيين حقدا وحسدا وكراهية وبغضا !

الطريق الأمثل لاستقاء المعلومات عن شعب مّا :

ومعلوم أن الوقوف على أفكار الأهالى وعاداتهن كما ينبغى لا يحصل ولا يتم بالتجوال فى أسواق البلد وطرقه ومشاهدة مواقعه المشهورة وإنما لأجل الوقوف على أحوال إحدى الملل الحقيقية يجب الاجتماع بالذكور والإناث والأخذ معهم بأطراف الحديث[٧].

ولما كانت النساء عندنا متحجبات كان الاجتماع بهن مستحيلاً على الرجال من السياح ! ومع ذلك فإن كثيراً ما توجد بين هؤلاء السياح نساء لا تقل معارفهن عن معارف الرجال فيمكن بواسطتهن أن يطلع سائر السياح أيضاً على أحوال نساء المسلمين الحقيقية بمزيد من السهولة ! لكن هؤلاء النساء العارفات أيضاً لا يمكن بمجرد دخولهن على عائلة أن يفهمن لغتها فإنهن يكُنّ حينئذ كالخرس ويكتفين بتبادل النظرات !

أغلب من يعرفن اللغة الفرنسية عندنا !

أجل إن لدينا فى الوقت الحاضر عدداً من النساء اللاتى يعرفن اللغة الفرنسية غير أن قسماً كبيراً منهن قد تَرَبَّيْن تربية أفرنجية صِرْفة بمعرفة المربيات الأروبيات المعروفات باسم : « الشينوتريس » فتعلمن اللغة الفرنسوية لا لأجل اكتساب المعارف والعلم وإنما رغبة منهن فى أن يكن أفرنجيات فحسب !

ولما كن جاهلات بالأحكام الشرعية وكن قد نبذن عاداتهن المِلِّية ظِهرياً وعشن عيشة أفرنجية كان الاجتماع بهن والأخذ بأطراف

(٧) فى إطار المبادىء والقواعد التى قررها الدين .

الحديث معهن نظير محادثة العيال الأفرنجية فى « بك أوغلى »[٨] فلا يستفيد من يحادثهن فائدة بالكلية » ولا يفهم منهن شيئاً على الإطلاق . وهاته العيال السالكة مسلك التقليد إذا رغب إليهن أحد فى الحصول على المعلومات المتعلقة بأصول المعيشة الإسلامية مما يكن قد نبذنه نبذ النواة سكتن عن بيان استقامة وطهارة الدين الإسلامى – من حيث إنهن قليلات العلم بذلك – وأخذن فى الكلام بحدة وشدة عن « مسائل الحجاب » زاعمات أن العادات المِلّية مقتبسة عن الأُحكام الشرعية وبالجملة فإنهن يبحثن فى أشياء لا علم لهن بها فيكن سبباً لمفتريات وإساءات بعض الأجانب على الدين المطهر الذى استَنَرْنا بمشكاته[٩] وتشرفنا بآياته !

والغالب أن النساء اللاتى قدمن إلى مَدِينتنا من أوربا بقصد السياحة قد أدركن هذه الدقائق ، فإنهن كثيرات الرغبة فى الاجتماع بالعيال الإسلامية التى ما برحت عائشة على النسق السابق والأُصول القديمة ! وأنه يوجد قسم من العيال الإسلامية أيضاً بحسب أفرادهم يعتقدون أن فى تعليم النساء العلوم والمعارف إثما حتى أنهم لا يتعصبون فقط بأمر تعليمهن اللغة الفرنسية بل يتعصبون أيضاً فى تعليمهن من اللغة التركية ما يزيد عن اللزوم الضرورى .

---

(٨) العيال : تقصد : العائلات والأُسر فهم عيال على غيرهم ، والكل عيال الله والعيال : جمع عَيِّل . وهم أهل بيت الرجل الذين ينفق عليهم . وقد يراد بالعيال المفرد مذكرا أو مؤنثا . و« بيك أو غلى » قسم من دار السعادة يسكنه الإفرنج .

(٩) المراد : استنرنا بنوره . والمشكاة كوّة فى الحائط غير نافذة يوضع فيها المصباح وفى التنزيل العزيز ﴿ كمشكاةٍ فيها مصباح ﴾ . وفى المساجد يطلق على كل ما يحمل عليه أو يوضع فيه القنديل أو المصباح – مشكاة .

والحق يقال : إن هؤلاء ممن لا يعلمون ما بلغ إليه الأزواج المطهرات ، والبنات الزاكيات وكثير من العالمات الأديبات اللاتى كن فى صدر الإسلام من رفيع الدرجات فى العلم والفضل .

كشف وجوه النساء !

ومع أن كشف وجوه النساء غير محرم شرعاً ، وإنما الواجب عليهن أن يسترن شعورهن فإنا نرى بعضاً من نسائنا يحجبن وجوهن على عكس الإيجاب الشرعى ويكشفن شعورهن(١٠).

أمواج الحيرة !

والحاصل أن الحد الوسط مفقود عندنا تتلاعب بنا أمواج الحيرة فى عباب التيه فلا ندرى إلى أية جهة نسير والحال أن الإفراط والتفريط

---

(١٠) سيتكرر هذا التعبير فى صفحات قادمة عن وجوب ستر الشعر دون الوجه ، لوجود خلاف فى كشف الوجه وإزاء هذا نضع بين يدى القارىء ما تم الإفتاء به :

أفتى من لهم صلاحية الفتوى بأن « **الصحيح** من أقوال العلماء الذى دلت عليه الأدلة الشرعية أن ستر الوجه للمرأة واجب فى حضرة غير محارمها لأنه مجمع الزينة التى أمرت المؤمنات ألا يبدينها لغير المحارم فى قوله تعالى : ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن** ﴾ [سورة النور الآية : ٣١] .

ثم قال : **ولا خلاف** بين العلماء – فيما نعلم – أن رأس المرأة وشعرها مما يجب عليها ستره عن كل من ليس بمحرم لها ، وأن كشفه لغير المحارم حرام . قال الله تعالى : ﴿ **يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ [سورة الأحزاب : الآية ٥٩] .

ثم قال مبينا الحكمة فى ذلك : ﴿ **ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يؤذين** ﴾ أى ذلك الستر أقرب إلى أن يعرفن بالعفة وصيانة العِرْض فلا يتعرض لهن أحد بغرض رِيبة طمعاً فيهن ، ورغبةً فى أن يتمتع بهنّ ، أو يقضى وطره منهن » . وكأنما تشير الكاتبة إلى أنه لا خلاف على وجوب ستر رأس المرأة وشعرها ورقبتها وما تنفتح عليه الجيوب بينما يُختَلَف على كشف الوجه ومع هذا فهناك من يحجبن وجوههن ويكشفن شعورهن ! نزولاً على العادة لا اتباعا لأوامر الدين .

فى كل شيء مضر ومذموم ، والاعتدال مشكور فى جميع الأحوال ، فإن خير الأمور أوسطها .

ما يجب على السائحين :

فبناء على ذلك يلزم على السياح – كى يتمكنوا من الوقوف على حقائق الأحوال – أن يجتمعوا ويتباحثوا مع العيال العارفة اللغة الفرنسية العائشة على مقتضى الأصول الإسلامية حالة كونها محافظة على أحكامها الدينية وأفكارها وعاداتها المِلّيّة .

جهل التراجمة وما يترتب عليه من مساوىء !

نعم إن تمييز ذلك مشكل بالنسبة إلى الغرباء إذ أن الأجانب الذين ينزلون فى « فنادق بك أوغلى » يطرحون على التراجمة الذين لا يحيطون علماً بما خرج عن عالم هذا المحل أسئلة بقصد الحصول على بعض الأشياء فيأخذ هؤلاء التراجمة بالنظر إلى اضطرارهم لتأدية الجواب على إلقاء كلمات لا معنى لها فيهرفون بما لا يعرفون وتصبح أحوالنا موضوعاً للحكايات الخيالية .

ومن الأمور المعلومة عند سائر الأنام أن الأروبيين لا يعترضون بشيء على أحكامنا الدينية الموافقة للحكمة والعقل[١١].

وإنما يتخيلون ويظنون أن « نساء المسلمين » مظلومات[١٢] معذورات فيطلقون ألسنتهم بالمؤاخذات الشديدة فى هذا الباب[١٣]!

---

(١١) وكلها موافق للعقل والحكمة . وهذه ميزة الإسلام .

(١٢) إن الشارع الحكيم هو الذى قرر تلك الأحكام : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ ؟! [١٤/ الملك] .

فليتخيلوا ما شاء لهم التخيل مادامت أفهامهم قاصرة عن فهم أسرار التشريع !!

(١٣) وليس أدل على ذلك مما كتبه الكاتب الفرنسى « جيراردى نرفال » فى افتتاحية الجزء الثالث من كتابه « رحلة إلى الشرق » : « حيث يقول : القسطنطينية ، يا لها من =

المحاورة الأولى

مع نبيلة وراهبة فرنسيتين

حـول :

- الخدم والجوارى وموقف الإسلام من الرق !
- طعام الإفطار ومائدة عيسى - عليه السلام -
- الصيام فى الإسلام ومدى صبر المسلمين عليه ! و« الانقطاعات » و« الرياضات » عند المسيحيين .
- المراد بآل عمران ، ومَنْ عمران ؟
- ولادة عيسى - عليه السلام -.
- الأناجيل والبشارة بمجىء نبى بعد عيسى-عليه السلام.
- صلاة التراويح . وحديث حول سورة الإخلاص .
- حوار حول الحواريين ، وولادة عيسى-عليه السلام
- رأى الإسلام فى « الصلب » والرفع .

سبب فى تأليف هذا الكتاب !

وبما أننى فى خلال محاوراتى مع بعض السائحات المعْتَبرات قد للعت على **أوهام الأروبيين وفساد ظنونهم المتعلقة بنا** ولم يسعنى ، أستر استغرابى من ذلك فى خفايا القلب !! رأيت نفسى مضطرة ى بيان مادار بيننا من الأحاديث فى المحاورات المذكورة على الوجه لآتى ؛

المؤلفة
فاطمة علية خانم
١٣٠٩ هجرية

مدينة غريبة ! مدينة تتكون من الفخامة والبؤس ، من الدموع والأفراح . إن الظلم فيها أكثر منه فى سواها ، وكذا الحرية . ذلك أن أربعة شعوب مختلفة تعيش فيها دون أن يكون كرهها بعضها لبعض كبيرا ؛ فالأتراك والأرمن ، واليونانيون ، واليهود أبناء أرض واحدة ، ويتحمل بعضهم بعضا أكثر مما يتحمل فى بلادنا أبناء المقاطعات المختلفة » .

ثم يكشف عما فى داخله فيقول : « هل كان مقدرا لى أن أشهد الفصل الأخير من التعصب والبربرية التى تمارس بمقتضى العادات الإسلامية القديمة ؟! » .

ومن يطالع كتاب « ترفال » يجده **يخلط دائما بين الدين والعادات التى تأصلت فى بعض الشعوب ، وهو منها بَراء !**

وهكذا نرى السائحين والسائحات يخلطون بين الدين والعادات التى تأصلت فى الشعب التركى وراحوا يعيبون الإسلام بها وهو منها براء !←

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا !!

المحاورة الأولى

بيني وبين سيدتين فرنسيتين

في يوم من شهر رمضان الشريف عام ١٣٠٨ هـ أي : في السنة الماضية أخبرنا أن نبيلة أوربية تدعى « مدام » « فردينند » ، وراهبة زاهدة في الدنيا ترغبان في المجيء إلى منزلنا لمشاهدة طعام الإفطار وبُعَيْد العصر أقبلتا على المنزل ، وأخذتا تتنزهان في الحديقة الخارجية ثم بعد مرور نصف ساعة أرسلتا تخبراننا أنهما ستدخلان إلى المنزل .

ولما كانت وظيفة الترجمة في منزلنا مفوضة لعهدة « هذه العاجزة »(١٤) ذهبت لاستقبالهما في باب الحديقة تصحبني جاريتان لتحملا رداء كل من الزائرتين ومظلتيهما .

وعند دخولهما رحبت بهما باللغة الفرنسية وتبادلنا المصافحة بالأيدي . ثم إن « مدام فردينند » مدت يدها إلى الجارية التي كانت بصحبتي وهي الجارية القائمة بخدمة رئيس الخدم في منزلنا لتصافحها ، أما الجارية فإنها تناولت المظلة من يد المومأ(١٥) إليها الثانية وانسحبت إلى الوراء ، وأخذت الجارية الثانية رداءهما و(بُرْطُلَيْهما)(١٦) ودخلت بهما إلى قاعة الضيوف . وبعد ذلك قدمتُ لهما : صاحبة البيت وأفراد العائلة وعرّفتُهما بهن على مقتضى الأصول الجارية .

---

(١٤) تعني نفسها ؛ تواضعا وأدبا .

(١٥) الموما ، والمومأ مخففة ومهموزة : المشار إليها من الإيماء .

(١٦) البُرْطُل : القلنسوة و« القبعة » . كعادة الإفرنج عند دخول الأماكن .

أما « مدام فردينند » فهى امرأة بين الخامسة والثلاثين إلى لأربعين من العمر . والراهبة بين الأربعين إلى الخامسة والأربعين فى سنى الحياة ، وقد علمت أن « مدام فردينند » المومأ إليها والراهبة أيضاً لم تزورا « دار السعادة » قبل هذه المرة .

وبعد أن أكرمناهما بالحلوى والقهوة على النسق التركى طلبت « مدام فردينند » أن تتفرج على غرفة مفروشة على الأصول التركية ، فأدخلناها إلى القاعة ، ولما لم تر فيها غير مقعد بسيط أخذتها الحيرة وطلبت منى أن أطوف بها — إذا أمكن — فى الغرف الأخرى فتكون فى غاية الامتنان .

فقلت لها : إن ذلك مما يزيدنا مِنّة وسروراً ، وسارعتُ حالا فى إنفاذ رغبتها .

حديث حول الخدم ووضعهن ومصيرهن :

وفى خلال ذلك أشارت مدام « فردينند » إلى « رئيسة الخدم » الواقفة أمامها وقالت : أثناء دخولنا قدمت يدى لهذه السيدة فلم تتناولها وإنما أخذت من يدى المظلة ، والآن أراها واقفة على الأقدام لا تجلس معنا فما السبب فى ذلك ؟!

فقلت : فعلَتْ ذلك لأنها جارية أيتها « المدام » .

فقالت : وما شأن البنات اللاتى على مقربة منها ؟

فقلت : هن مثلها أيضاً .

فقالت : حسن جداً ! ولكن تلك السيدة أرى فى أذنيها أقراطاً ، وفى يدها خاتماً ، وعلى صدرها ساعة جميلة و« سلسلة » ؟! وقد ظننت قبلاً أنها سيدة والآن علمت أنها جارية فأخذتنى الدهشة من تميزها بالحلى عن غيرها من الجوارى . فما السبب فى ذلك ؟ وأرى أن هاته الفتاة الواقفة فى الطرف الآخر لا تلبس غير قرط فى أذنيها ،

ولكن هذا القرط ليس بذى قيمة ، وفضلاً عن ذلك فهى لا تحوى غيره من أنواع الحلى . والجارية الواقفة فى تلك الجهة تحمل ساعة بسيطة وسلسلة لا غير ؟!

فقلت لها : إن الجارية التى ظننت أنها سيدة إنما هى رئيسة الخدم فى هذا المنزل . أعنى : أنها بمنزلة مديرة لسائر الجوارى فهى التى تعلمهن كيف يجب عليهن أن يَخِطْن ألبستهن ، ويسرحن شعورهن ، ويَقُمن بأمورهن الخصوصية ؛ لأنهن ساذَجات غبيات ! ولا تزال رئيسة عليهن حتى يَصِرْن قادرات على إجراء ذلك ، وهى التى تكون بمقام الوالدة لهن مهما يَكُنْ عددُهُنّ .. كثيراً كان أم قليلاً ، وسيدة المنزل تُلْقى التبعةَ عليها بأمر نظافتهن وطهارتهن ؛ فهى المرجع المسئول ، ولما كانت أعمالها وخدمتها تربو على خدمة غيرها فقد أعطاها سيدُها هذه الهدايا بمقابلة خدمتها .

وأما هاته الجارية الفتاة فقد جُلِبت إلى هذا المنزل وهى فى السنة الرابعة من العمر وحتى الآن لم يعهد إليها بخدمة وعمل على الإطلاق ! وهى الآن فى الرابعة عشرة من سنها ولما كانت غير قادرة على العمل إلى هذا الوقت لم تحمل خدمة وعملاً . ورئيسة الخدم التى تنظرينها الآن قد كانت من الخدم ذوات الدراية والاستعداد فى عهد رئيسة الخدم التى كانت قبلها ، فنالت بمهارتها هذه المرتبة وصارت رئيسة للخدم ، وكانت قائمة على العناية بهاته الجارية الصغيرة ؛ وعلى ذلك فإنه من الآن فصاعداً ستُنْتَظَر الخدمة من هاته الصغيرة ، والأعمال التى عهد بها إليها حتى الآن ستقوم بها فى المستقبل بمعنى أنها أخذت منذ الآن فى مباشرة الخدمة ، وأما القرطان اللذان فى أذنيها فقد اشترتهما بالدراهم التى اقتصدتها ، وادخرتها من راتبها الشهرى .

تنبيه هام : يراعى أن المعلومات التى تذكرها الكاتبة عن الجوارى إنما هى تصوير لواقع اختلطت فيه المبادىء الدينية بالعادات والتقاليد وفيها الحسن والقبيح كما جاء فى صفحة ٥٤ .

والجارية الأخرى – التى تفضلت بالسؤال عنها – لا تزال حديثة العهد فى هذا البيت فلم تقم إلا بعمل قليل قد مكنها من مشترى الساعة والسّلسلة .

فقالت : لا أخفى عنك أيتها السيدة أن الكلمات التى أسمعتنيها موجبة للحيرة والاستغراب ! وسأتقدم إليك بطلب بعض التفصيلات إذا كان ذلك غير داع لإزعاجك . فقلت لها : اسألى ماشئت ؛ فإنى مستعدة أن أجيبك عن كل ما تسألين . قالت : ذكرت فى عرض كلامك السابق شيئاً عن رئيسة الخدم السابقة ! فأين مصيرها ومقرها الآن ؟! قلت لها : إنها قد هيأت خادماتٍ يمكنُ لهنّ القيام مقامها ولما كانت قد انتهت وظيفتُها ، وأوفت ما يجب عليها فقد (زوجناها) ولها الآن ثلاثة أولاد . قالت : وأين هى الآن ؟ قلت :

حيث إنها أصبحت ذات بعل فهى الآن فى بيت زوجها !

قالت : هل تبقى وظيفة رئاسة الخدم فى الأقدم فالأقدم ؟!

قلت : كلا . فإن سيدة المنزل تُنتخب من ضمن الجاريات اللائى تهذّبن على أيدى رئيسة الخدم أكثرهن ذكاء واستعداداً وتُعَيّنها رئيسة للخدم .

وسائر الجوارى ينلن الهدايا مثلها بمقابلة خدمتهن ، ولا يمكن أن يكن رئيسات للخدم ، واكتساب هذا اللقب بمجرد الأقدمية .

على أن رئيسة الخدم لا تعاملهن معاملة الساذجات ولا تأتيهن بكلام الآمِر ، وإنما تصدر إخطاراتها وتنبيهاتها بطريق المجاملة واللطف وتعاملهن معاملة شقيقات لها(١٧)! قالت :

---

(١٧) وهذا هو توجيه الإسلام فى معاملة الرقيق والخدم حيث أمرنا ربنا بالإحسان بالوالدين وما ملكت أيماننا فى قوله : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ وما ملكت أيمانكم ﴾ [٣٦/ النساء] . وعن أبى =

ذكرت شيئاً يتعلق بالرواتب فهل تدفعون راتباً للجوارى ؟

قلت : لا ريب فى ذلك ! نعم إن سيد الجاريات هو الذى يقوم بتسوية ما يلزمهن من الألبسة وسائر الحاجات ، غير أن لهن نفساً كما لا يخفى ولكل نفس ميل ورغبة ، فربما اشتهين طعاماً لم يكن له وجود ذلك النهار فى البيت ، وربما مِلْن إلى الحصول على ألبسة تختلف عن الألبسة التى أعدها لهن سيدهن ؛ فهذه الرغائب والمشتهيات يأخذنها بالدراهم التى يدخرنها من رواتبهن ! ولذلك كانت لهن رواتب مخصوصة .

قالت : وهل تعطون الجاريات القديمات علاوةً على تلك الهدايا ؟!

قلت : لا . فقط هدايا أيتها « المدام » . وإنما متى صارت الجارية « خصيصة »[١٨] على أهل المنزل نجهزها الجهاز اللازم ، وإذا نالت الجارية حظوة فى عين سيدها وكان سيدها مقتدراً فإنه هو الذى يقترن بها .

قالت : ألا تشترون الجوارى أنتم بالدراهم ؟ قلت :

أجل ، غير أن الدراهم التى ندفعها إنما تدفع للبائع فالجارية لا تستفيد منها شيئاً ، والفائدة عائدة لأقرباء المبيع أو سيده والديانة

= ذر قال : « سابيت رجلا فشكانى إلى النبى ﷺ فقال النبى ﷺ : « أعيّرته بأمه ؟! ثم قال : إخوانكم خوَلكم (خدمكم) جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » [رواه البخارى ومسلم] .

وعن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه » .

وعن سويد بن مقرن قال : « رأيتنى سابع سبعة من بنى مقرن ما لنا خادم إلا واحدة لطمها أصغرنا فأمرنا رسول الله ﷺ أن نعتقها » [رواهما مسلم] .

(١٨) أى مقصورة على خدمة بيت بعينه .

الإسلامية تأمرنا بأن لا نترك للجوارى حقاً علينا ، ولأجل ذلك نُعطى لكل جارية هدايا ودراهم وجهازا بمقابلة خدمتها .

فقالت : يستفاد من ذلك أن الجاريات هُنّ نوع من الخادمات .

قلت : نعم . إنهن يشبهن الخادمات اللاتى يستخدمن مشاهرة أو بالسنة غير أن الخادمة إنما تعين لها أجرة ومدة معلومة[19]، فإن الجهالة فى الأجرة ومقدار الأجل إنما هى إجارة فاسدة[20].

وأما الجارية فإن الدراهم التى ستنفق عليها غير معلومة كذلك مدة بقائها غير معينة فقد تطول وقد تنتهى بعتقها . ويعد هذا البيت بيتها .

---

(١٩) والخادم حر كسيده . وذلك مثل ما حدثنا عنه القرآن فى قصة موسى عليه السلام حيث استأجره والد الفتاتين ثمانى حجج فى مقابل مهر إحدى الفتاتين فإن أتم عشرا فمن عنده دون أن يشق عليه . وتنتهى الإجارة بانتهاء المدة المتفق عليها بينهما .

(٢٠) هناك فرق بين ملك اليمين والإجارة الفاسدة فمن الجدير بالذكر أن العبد وما ملكت يداه لسيده بخلاف الخادم المستأْجَر ، ومع هذا فإن الإسلام كما شرع للمسلمين أن يملكوا من أبى الإسلام و لم يدفع الجزية لهم من أهل الحرب لإبائهم عن عبادته – حبب إلى المسلمين عتقهم والإحسان إليهم مطلقا ، وطلب تحرير المملوك بطرق عدة خصوصا إذا دخل فى الإسلام وآمن به واتبعه ، وكان قادرا أن يستغنى بنفسه عن السؤال ، ففتح باب الترغيب المطلق ، ووعد على ذلك بالأجر الذى يعطى عليه مالا يُنَال على كثير من النوافل ، وفتح باب الكفارات عن القتل والظهار والأيمان والجماع نهار رمضان لتحرير الأرقاء والإحسان إليهم بذلك ، وأوجب على أسياد العبيد إذا طلبوا منهم الكتابة والتخلص من العبودية أن يجيبوهم على ذلك إذا علموا منهم الإيمان ،وأمَرهم أن يعينوهم عليها بدفع شيء من أموالهم ، ومن الزكاة المفروضة عليهم فى أموالهم . وهذا ما انفرد به الإسلام بينما تستعبد الأمم الأخرى رعاياها وتذيقهم أمَرّ العبودية ولا تفتح لهم أى باب للحرية كالإسلام .

ولقد اتفق الأئمة على جواز اشتراط الخدمة على المعتَق مدة معلومة بعد العتق وقبل العتق كما ذكر ابن رشد فى البداية .

وليكن معلوما للجميع أن الإسلام لم يشرع الرق وإنما شرع العتق !

وقد جرت العادة والتعامل على هذا الوجه ، والدراهم التى ينفقها سيد الجارية عليها إنما تكون بمقتضى إخلاصها وصدقها فى عملها وثروة سيدها وهذه القيمة يعينها العرف ، وترسمها العادة ، أما مدة خدمتها فإنها وإن كانت غير معينة إلا أن الشريعة تحثنا على العتق[٢١] « يجب أن تعتقوا الجارية بعد خدمة تسع سنوات وإذا لم يكن لكم ثروة واقتدار ، فبيعوها إلى شخص من أهل المروءة فيعتقها »*

ومع ذلك فقد جرى العرف والعادة على المبادرة بالعتق حتى صار يُعاب على الذين لا يعتقون جواريهن بعد سبع سنوات ! .

أما ذوو البيوتات من أهل الديانة والمروءة فإنهم لا يقيدونهن بهذا المقدار ؛ لأن فى الدين أسباباً كثيرة تقضى بالعتق وإطلاق الحرية لهن .

(٢١) الجمهور كما ذكر ابن رشد فى البداية على أنه لا يجبر أحد على عتق مملوكه لكن الشرع فتح الباب أمام من يريد أن يخلص نفسه بقوله تعالى ﴿ **فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا** ﴾ واختلف الأئمة فى عقد الكتابة هل هو واجب أو مندوب إليه . قال فقهاء الأمصار : إنه مندوب . وقال أهل الظاهر : هو واجب واحتجوا بظاهر قوله تعالى : ﴿ **فكاتبوهم** ﴾ . والأمر على الوجوب .

لكن الجمهور لما رأوا أنه لا يجبر أحد على عتق مملوكه حملوا الآية على الندب لئلا تكون معارضة للأصل . وأيضا فإنه لما لم يكن للعبد أن يحكم له على سيده بالبيع له ، وهو خروج رقبته عن ملكه بعوض ، وذلك أن كسب العبد هو للسيد .

وعقد الكتابة أن يشترى العبد نفسه وماله من سيده بمال يكتسبه العبد .

وقد اختلف العلماء فى المراد بالخير الذى اشترطه الله فى المكاتبين ، فقال الشافعى : الاكتساب والأمانة . وقال بعضهم : المال والأمانة . وقال آخرون : الصلاح والدين . وأنكر بعض العلماء أن يكاتب من لا حرفة له مخافة السؤال ، وأجاز ذلك بعضهم لحديث بريدة « أنها كوتبت على أن تسأل الناس » وكره مالك أن تكاتب الأمة التى لا اكتساب لها بصناعة مخافة أن يكون ذلك ذريعة إلى الزنا . غير أن الإسلام ندب المسلمين إلى تحرير الرقيق وفك رقبة وجعل فى مقابل ذلك الجزاء الأوفى دون تحديد زمن الملكية .

* هناك دعوة عامة لتحرير الرقيق والترغيب فيه والحث عليه وليس مابين القوسين من النصوص الواردة .

ومن جملة ذلك : أن شخصاً مّا متى نال بغية يرجوها أو مراماً يسعى إليه ويرجوه فيعتق عبداً أو جارية من قبيل شكر النعمة .

وإذا نذر بعضهم قائلاً :

إننى إذا حصلت على المقصد الفلانى أعتق لأجله عبداً وجب عليه أن يقوم بإيفاء النذر .

وأما الجارية التى تقوم بتربية ابن سيدها فإنها تعطى حريتها فى اليوم الذى يذهب به الصغير للمدرسة[٢٢] ومن حيث إن أكثر الصغار يرسلون إلى المدرسة وهم فى السنة الرابعة من عمرهم كانت مدة أسر المربيات أربع سنوات .

حتى أنه إذا ارتكب شخص قصداً إفساد صوم يوم واحد من صيامه فرض عليه أن يكفر عن ذلك بإعطاء الحرية لعبد واحد ، وإذا لم يستطع هذا الأمر فالكفارة تكون بصيامه ستين يوماً . وعلى ذلك كانت هناك أسباب شرعية وآداب مِلّية : تجبر أهل الإسلام على عتق العبد .

قالت :

حسن جداً ! غير أن الخادمة يمكنها أن لا تخدم فى المنزل الذى لا ترضاه . أما الجارية فإنها مكرهة على البقاء فى الخدمة وإن كان سيدها ظالماً ! ؛ فقلت :

إن الجارية التى تكون غير مسرورة من المنزل وكانت راغبة فى تركه فيكفى فى ذلك أن تقول : « بيعونى » وحينئذ تباع إلى من ترضاه ، ويعجبها ! وقد جرت العادة أنها لا يمكن أن تباع إلى شخص

---

(٢٢) إكراما للدور الذى قامت به فى تربيته وشكرا للمنعم .

لا يلائمها ! وأما من حيث الوجه الشرعى فإن الظلم والجفاء لا يجوز إتيانه بحق الأسرى على وجه الإطلاق وعند مراجعة المحكمة فى الأمر فالعدالة تأخذ مجراها لدى الحاكم . قالت :

يستفاد من ذلك أنه لا فرق بينهن وبين الخادمات ! قلت :

كلا أيتها المدام ! إننا لسنا بمديونين للخادمات بهذا القدر ، فإن الخادمة تتناول راتبها الشهرى ليس إلا . وفى الزمن الذى لا تحتاج به إليها تمنحها الإذن فتذهب إلى حيث شاءت ، ومتى صارت ذات بعل فهى التى تهىء جهازها لنفسها ، ثم إنها إذا لم تتفق مع زوجها ورغبت فى الانفصال عنه فهى بذاتها تبحث عن محل لها[٢٣].

وأما الجارية فليست من هذا القبيل ؛ لأنها متى صارت زوجة ولم تستطع أن تعيش مع زوجها ورغبت فى الانفصال عنه[٢٤] أتت تَوًّا إلى منزل سيدها كأنما هى آتية إلى منزل أبيها ، وحينئذ يترتب على سيدها أن يتحرى لها عن زوج ملائم فيزوجها به مرة أخرى ، والأسيادُ هم الذين يتولون حماية أولاد جواريهم ، ويساعدونهم فى تعليمهم وتدريسهم ، وكل جارية تشاهد من زوجها ظلماً تشكو أمرها إلى سيدها الذى يدافع عنها ، فإذا توفى زوجها ولم يترك ميراثاً كافيا لإدارتها تأتى بأولادها إلى منزل سيدها .

---

(٢٣) وذلك بعد استنفاد وسائل الإصلاح والتوفيق واستحالة دوام الحياة الزوجية على ضوء ما أشار به القرآن الكريم .

(٢٤) بعد استحالة دوام العشرة واستنفاد وسائل الصلح ، فأين تذهب ؟ إن بيت سيدها هو الملجأ وهو حصنها من الضياع ! وهناك رابطة الولاء بعد عتقها والولاء لُحمةٌ كلُحْمة النسب .

نظير هاته الجارية المُعْتَقَة[٢٥] التى ترينها من هذه النافذة قابضة على يد ولدها الصغير وطائفة به فى فناء الدار ؛ لأنه متى عجزت الجارية المعتقة عن القيام بإدارة نفسها وجب شرعاً على معتقها أيًا كان أن ينفق عليها ، فإذا امتنع أكرهه القاضى على ذلك ، وبعكس الأمر إذا توفيت جارية بلا عقب عن ثروة طائلة كان لمانحها الحرية – أيًا كان – نصيب من الإرث فينتج من ذلك أن الجوارى معدودات من أعضاء العائلة تماما .

وزيادة عما تقدم فإننا نأتمن الجوارى على مفاتيح صناديقنا ونسلمهن إياها مع أننا لا نأتمن الخدام عليها بالكلية فإن الجوارى لا يركبن غارب الخيانة لأن بين الجارية وسيدها صلة ورابطة كبيرة بهذا المقدار حتى إن الجارية لا يمكن أن تخون مولاها إلا إذا كان الأولاد يخونون والديهم ، فإذا مرض سيدها بذلت روحها وقلبها فى سبيل خدمته مخافة أن تفقده وكان مثلها فى هذا الأمر مثل الأولاد الذين تأخذهم الرعدة والمخاوف من فقد وضياع أمهم وأبيهم ، ثم هى إذا أصابها ألم فى الرأس حصلت بعناية سيدها على مثل ما عاملته تماماً . ومع أن للجوارى المعتَقَات كل الحرية فى الذهاب إلى أين شئن فلم يتفق حتى الآن أن جارية تركت حماية سيدها الواجبة عليه حتى الموت وعادت إلى حيث يقيم أبوها ، وذوو قرباها .

قالت « المدام » :

لا جرم أن ذلك منبعث عن نفرتها من أبيها وأمها وذوى قرباها الذين باعوها أليس كذلك ؟!

---

(٢٥) وفى الشريعة الإسلامية نجد « ولاء العتق » وهو لون من التناصر ، وهو لمن أعتق وسببه الإنعام بالعتق فالمعتق عاصب لقوله ﷺ : « **إنما الولاء لمن أعتق** » متفق عليه . ولا يرث بالولاء إلا المعتق ذكرا كان أو أنثى أو عصبة المعتق الذكور دون الإناث . ويقول الرسول ﷺ : « **الولاء لحمة كلحمة النسب** » . رواه الطبرانى والبيهقى والحاكم بسند صحيح .

فقلت :

عفواً أيتها السيدة ليس الأمر كذلك فإذا سمحت أتيتك بالإيضاح الوافى ! قالت :

يا عجبا تطلبين منى الإذن للإيضاح وأنا أرجوه وأسترحمه !! إننى رأيت الأرقاء فى حالة تختلف عما سمعته عنهم حتى إن الذى سمعته منك عن الأُسَرَاء يباين الذى كنت فهمته على الخط المستقيم فلو تمهلت فى بيان الإيضاحات لرأيت من نفسى ما يحملنى كرهاً على تقديم الرجاء إليك بأن توافينى ببيان شاف عنهم فأرجوك أيتها السيدة أن تواصلى الحديث . قلت : لا يخفى أنه متى ولد للجراكسة ابنة جميلة يأخذون فى الحُدَاء[٢٦] لها كى تنام سالكين فى ذلك على طريقة الإفرنج الذين يعودون أولادهم على أن يُسْمِعوهم وهم فى دور الطفولية اسم « رتبة المارشال » « والجنرال » لترسخ فى أذهانهم فيكون لهم ميل إلى الانخراط فى الجندية . والجراكسة أيضا يسمعون بناتهم الجميلات فى دور الطفولية مثل هذه الأقوال حيث يقولون للطفلة : « إنك

(٢٦) الحُداء : الغناء للإبل ونحوها . والجركس أو الشركس : شعوب قطنت سابقا شمال غربى القفقاس والشاطىء الشرقى للبحر الأسود هاجر أغلبها إلى تركيا وسوريا والأردن .

وبلاد الشركس منطقة تاريخية ، ج ق جمهورية روسيا السوفيتية الأوربية ، بين البحر الأسود ونهر كوبال من جهة ، والقوقاز العظمى من جهة أخرى . والآن فى إقليمى كا سنودار وستافربول . والشركس شعب ينتمى لغويا إلى المجموعة القوقازية الشمالية » . ترك المسيحية واعتنق الإسلام فى القرن ١٧ . تزلت تركيا عن شركسيا لروسيا ١٨٢٩ ، ولكن الشركس ظلوا يقاومون حتى ١٨٦٤ . يبلغ عددهم : ١٧٨٠٠٠ نسمة يعيش ٣٠٠٠٠ نسمة منهم فى الاتحاد السوفيتى .

هذا وتطبيق شرع الله إنما يكون فى المماليك والجوارى اللاتى أخذن بطريق مشروع ، وهو طريق واحد هو طريق أسرى الحرب لإعلاء كلمة الله ، ولا ينبغى أن نتوقف لتبرير الاسترقاق الذى تمثل فى صورة بيع الآباء بناتهن مما لا يسمح به الشرع الشريف ! ولا تقره المبادىء الإنسانية !

ستذهبين إلى الآستانة فتصيرين زوجة أحد « الباشوات » فلا تنسين أهلك وذوى قرباك بل اجتهدى فى إعانتهم حتى إذا أدركتْ الطفلةُ معنى الكلام يملئون آذانها بمدائح سعادة وحسن حال خالتها أو عمتها الموجودة فى الآستانة فيتجسَّم الميل فى الطفلة تَجَسُّماً كبيراً وتبتدىء تسأل نفسها عن الزمن الذى تذهب به لتحظى بالسعادة الموعودة .

أما والداها فإنهما يبذلان روحهما ومطلق عنايتهما إلى الاهتمام بها والسبب فى ذلك أنها جميلة ، وأنه سيأتى يوم تصير فيه ولى نعمتهما*، وعندما تصل الفتاة إلى السن الذى تعرف به نفسها تخجل لا محالة من مخاطبة والديها فتأخذ فى مخابرة الفتيات اللاتى ينبئنها عن المستقبل الذى يتبسم لها وتتذمر متشكية من الإهمال الواقع فى إرسالها .

ومن هنا يتضح جلياً أيتها « المدام » أن هذا الوالد وهاته الوالدة يرسلان ابنتهما إلى البلدة التى ينتظرها بها خاطبها ولكنه الخاطب الذى يقبل بنتهما بلا جهاز ولا يكلفهما نفقات . وفضلاً عن ذلك فإنه الخاطب الذى يفيض عليها من سائر أنواع الحلى والمجوهرات .

وأما الابنة فإنها تنفصل عن أبيها وأمها وذوى قرباها لتبحث هم عن السعادة والمستقبل الذى ينتظرونه منها ، ولكن كيف تنفصل؟! إنها تنفصل بشجاعة وبسالة تدل على أنها تخاطبهم بلسان حالها قائلة لهم : « إننى لا أحملكم مئونة إيجاد زوج لى وإنما سأجده بنفسى فانظروا كيف أننى سأفيكم حقوقكم وعنايتكم بى حتى بلغتُ هذا الطَّوْر بصورة تظهر بها العظمة وعزة النفس » .

وما ينطقها بهذه الأقوال إلا الأمنية والثقة بأنها بواسطة جمالها

---

* الله – سبحانه – هو ولى النعم ، أما هى فقد جرت النعمة على يدها .

الذى تراه فى المرآة ستحصل على الزوج الذى تريده والسعادة التى ترغب فيها[27].

والمفهوم أيتها « المدام » أنهم إذا لم يرسلوها أصبحت فى ذلك الوقت عدوًّا لعائلتها ، ثم نأتى الآن للبحث بالفتيات غير الجميلات فهؤلاء لما كن محرومات من آمال أولئك الجميلات من حيث إنهن لم ينلن الأمنية والثقة فى النظر إلى مرآة وجوههن بينما كن يائسات من حالتهن واضطرارهن إلى صرف العمر والسعى والاهتمام والخدمة فى بلادهن ؛ إذ تتوارد عليهن الرسائل من بنات أعمامهن وأخوالهن غير الجميلات مثلهن اللاتى ذهبن إلى الآستانة فيقرأن فى سطورها ما

---

(٢٧) إذا كانت الكاتبة تصور واقعا فى عصرها للخادمات اللاتى لا يمتلكن إلا الجمال فقد كان الجمال ومازال هدفا لبعض الراغبين فى الزواج .. وهناك من يفضلون ذات المال ، وهناك من يفضلون ذات الحسب والنسب .. على أن الإسلام جعل الأفضلية لذات الدين فهى التى يُعَدُّ اختيارها ظفرا وفوزًا وإن لم تكن على جانب من الجمال بينما حذرنا خضراء الدمن و(هى المرأة الحسناء فى المنبت السوء) على أنه لا مانع بعد ذلك من وجود مسحة جمال ، وشىء من مال ، وانتسابها إلى حسب الرجال. إلى جانب الأساس وهو الدين .

وأيامًا كان فخروج الفتيات ، وسفرهن للخدمة أو للبحث عن الأزواج وعرض جمالهن ، وبيع الآباء بناتهم .. كلها عادات ليست من الدين فى شىء والإسلام منها براء ! ...

إن ما أباحه الإسلام من الرق مباح اليوم فى أمم الحضارة التى تعاهدت على منع الرقيق منذ القرن الثامن عشر إلى الأبد .

وأخيرا فإن الذى كان يحدث آنذاك إنما هو مخالف للدين . وبيع الصغيرات جريمة الأمهات والآباء تحت وطأة الفقر ، وجريا وراء المال !!، وإسنادا لغيرهن أمر تربية اليتيمات اللاتى ماتت أمهن !! كما يحدث الآن : تجارة الرقيق الأبيض فى شتى أنحاء العالم .

وسوف تعترف الكاتبة بعد صفحات أن القبيح فى بعض الأشياء يتغلب على الحسن . وأن الفطرة البشرية منهمكة فى تغييروتحويل الأشياء الحسنة إلى الوجهة الرديئة ، ولا تُنكر أنه تخلل « مسألة الأسر » أمور شتى من القبائح كبيع الآباء بناتهم !

يفيد أنهن متمتعات بالراحة وأنهن قد حصلن على الراحة التامة بإعفائهن من عذاب الخدمة ، والاهتمام بحرث الأراضي وفلاحتها ، ثم يتبين لهن من الرسائل التى تأتيهن بعد ذلك أن الجارية التى تتولى الخدمة قد أعطاها سيدها منزلا مكافأة لها على المدة التى أدتها فى خدمته ، وقام بتزويجها من رجل ملائم لها ، ثم متى وضعت طفلا ترسل إلى أهلها سلام هذا الطفل معبرة عن ذلك بما كان متبعا آنذاك من تلويث أصابع يد الطفل بالحبر وترسمها فى هامش الرسالة ، فتنوب هذه العلامة عن إهداء السلام ، ويظهر لهن من تلك الرسائل أن الجارية بعد زواجها لم تزل متمتعة بحماية سيدها وعنايته بها فتقع تلك الأنباء فى قلوب البنات موقعاً عجيبا إلى حد أنهن ينفرْن من البقاء فى منزلهن الذى شببن فيه ، ويصير فى عيونهن ظلاما ، وتتولد فيهن الكراهية من الأطعمة التى أكلنها ، وكانت لذيذة الطعم فى أفواههن .

وبالجملة فإنهن يرين الخدمة التى تعودن عليها ثقيلة جدا . وبالنظر إلى تلك الخيالات التى تتجسم فى أذهانهن لا يبقى لهن من ميل إلى العمل فيستولى عليهن الخمول والكسل ، ويعرضن أنفسهن للإهانة والتكدير من أمهاتهن وآبائهن ، أو يسمعن منهن كلاما أمر من الصبر ، وأثقل من أتعب الأعمال ، مثل قولهم لهن : «**إن الخبز لا يؤكل بدون عمل**» وغير ذلك من الكلمات التى تمس كرامتهن فتصبح كل واحدة منهن تناجي نفسها قائلة :

أليس غريبا أن أضطر أولا إلى الزرع ثم إلى الحصاد ، ثم لصنع الخبز لأجل أن آكل لقمة من الطعام ؟!

فإذا ذهبت إلى « الآستانة » التحقت هناك بخدمة أحد « الأفندية » فيأتينى الخبز والطعام المطبوخ ، وفى مقابلة ذلك لا أُسأَل إلا عَنْ خدمة المنزل . فإذا أصبحت سيدة فإننى أهتم بإدارة منزلى وتدبيره . أما هنا فما هى المكافأة التى من المحتمل أن أراها مقابل

ما أؤديه من الخدمة ؟! على أننى إذا خدمت « أحد الأفندية » حصلت ولا ريب على المكافأة ، ثم أصير حُرّة ، وأستخدم الخدم ، وحينئذ أصبح سيدة .

وعلى أثر هذه المناجاة تشتد بها الرغبة فى الذهاب إلى الآستانة ، واشتغال فكر الفتيات بتصور هذه الخيالات مع محبتها أمها وأباها تنظر إليهما من قبيل شكرها النعمة !

وإذا كانت هذه الأحوال لا توجب التحسين الكلى إلا أنه من حيث إننى لم آتك بهذه الإيضاحات إلا على سبيل الحكاية والمعلومات .

وحيث إننى لم أتعرض فيها للحكم على إصابتها أو العكس — أطلب منك إذا كنت لا ترين هذه الخيالات التى تتجسم فى ذهن الفتاة الجركسية موافقة لحب وطنها وعائلتها ، وتحملينها على حب الذات الصرف فصرحى بملاحظتك المُقنِعَة .

قالت : أرى يا عزيزتى أنك عرّفت « الرّقيقة » تعريفا لطيفا بهذا المقدار حتى ليكاد يجعل كل إنسان ميالا إلى أن يكون « رقيقا »(٢٨).

---

(٢٨) الرقيق : هو العبد المملوك مأخوذ من الرقة ضد الغلظة ؛ لأن العبد يرق لسيده ويلين .

وحكمه : الجواز لقوله تعالى : ﴿ وما ملكت أيمانكم ﴾ النساء . وقول الرسول ﷺ **« من لطم مملوكه » أو ضربه ، فكفارته أن يعتقه » مسلم . ولقد شرع الإسلام العتق ولم يشرع الرق فقد كان موجودا قبله .**

منشأ الرق : يعود للأسباب الآتية :

١ — الحروب حيث تسترق الجماعة الغالبة النساء والأطفال .

٢ — الفقر فكثيرا ما يدفع الناس على بيع أولادهم رقيقا لغيرهم .

٣ — الاختطاف بالتلصص والقرصنة وبيع من يختطفونهم فى أسواق العبيد . =

قلت : كلا – أيتها السيدة – لا يجب أن نكثر سواد الأرقاء إلى هذا الحد ؛ فإن ذلك يسبب نقصا فى عدد حُماتهن بالنسبة إليهن مما يقلل قوة الحماية أيضا(٢٩)!!

اشتراك الراهبة فى المحاورة :

بينما كنا – نحن – الثنتين – نتضاحك من ذلك كانت الراهبة – إلى هذا الوقت – لم تشترك معنا بالمحاورة ، وربما لم تنتبه إليها أيضا كما ينبغى حسب ما دل على ذلك من مرآها .

أما أنا فقد انتبهت لكلام السيدة انتباها يختلف عن صورته الأولى ، فقلت :

إن المعلومات التى بينتها لك عن الجوارى إنما هى مبنية على القواعد الشرعية الأساسية وعلى عادات وأفعال الأسر التى تراعى هاته القواعد مع سائر المقتضيات الإنسانية ، وإلا فإن العالم منه المليح والقبيح ؛ حتى إن القبيح فى بعض الأشياء متغلب على الحَسَن والفِطرة البشرية منهمكة فى تغيير وتحويل الأشياء الحسنة إلى الوجهة الرديئة ميالة مع سوء الاستعمال .

سوء استعمال الشريعة وسوء تأويل العرف والعادات الإسلامية :

= موقف الإسلام من هذه الأسباب لم يجز إلا سببا واحدا فقط وهو الاسترقاق بواسطة الحرب فقد أذن لأتباعه فى استرقاق النساء والأطفال إبقاء على حياتهم أولا وتمهيدا لإسعادهم وتحريرهم ثانيا ، وأما المقاتلة من الرجال إذا وقعوا أسرى فإما منا بعد وإما فداء .

وكما يبدو من نصوص الإسلام فإنهم يعاملون المعاملة اللائقة بشرف الإنسان وكرامته ، فقد حرم الإسلام ضرب الرقيق وقتله كما حرم إهانته وسبه ، وأمر بالإحسان إليه . وفوق هذا هناك تلك الدعوة العامة إلى تحرير الرقيق ، والترغيب فى ذلك والحث عليه .

(٢٩) وفى ذلك ما فيه من الخطورة على المجتمع وانتشار الفساد !

فبناء على ذلك لا يُنْكَر بالكلية أن يتخلل « مسألة الأسر » أمور شتى من القبائح ، إذ أنه لابد أن يوجد أيضا آباء يبيعون بناتهم اللائى يكن غير راغبات فى الخروج من بيوتهم التى نَشَأن فيها ، وذلك لمجرد أن يستفيدوا من ثمنهن[٣٠]!

كما أن هناك سادة يعاملون « الجارية » التى يكونون قد اشتروها معاملة تخالف المروءة الشرعية ، فبعد أن يستخدموها ثلاث سنوات أو خمسا يبيعونها أيضا من شخص آخر ميلا فى ذلك إلى المنفعة الشخصيّة .

أليس أن الناس يسيئون الاستعمال ، ويخبطون فى لجج التأويلات الفاسدة فيما يتعلق حتى بأكثر القوانين نفعا وأشد القواعد فائدة وحُسْناً تبعا لأغراضهم الذاتيّة ؟!

الخروج على المروءة !

وأما بحسب الإنسانية ، فإن الأمر الذى يوجب التأسِّى والتسلى أن **الذين يذهبون هذا المذهب فى سوء استعمال الشريعة وسوء تأويل العرف والعادات الإسلامية إنما هم دون الطفيف ، وهؤلاء من حيث الأنظار والأفكار العمومية معدودون من أرباب التجاوز الذين خرجوا عن حد الحق ودائرة المروءة وتلطخوا بالعار !**

أما السيدة ، فإنها قد تلقت هذه الملاحظات بأهمية مخصوصة وبعد أن اعترفت أنه كثيراً ما يطرأ على المروءة أمور من عدم الرعاية بين الآباء والأولاد والأزواج والإخوة فى أوربا أيضاً قالت : اعلمى يا عزيزتى ، أنه مهما يمكن أن يقال من المطاعن على الرقيق فجميعه

(٣٠) وهذا ليس من الإسلام فى شيء كما بينت ذلك فى تعليق سبق حول أسباب الرق وما يوافق عليه الإسلام منها . وسواء فى ذلك الراغبات وغير الراغبات .

نبهنا إلى ذلك من قبل ص ٤١ .

قد قيل فى أوربا[٣١]، وسُطّر فى الأوراق وأصبح معلوماً عند كل إنسان !! غير أن المسائل التى كانت مجهولة لدينا عن الرقيق إنما هى النقط التى أتيت على تعريفها وبيانها فلقد أصبحتُ من جراء بيانك ممتنة شاكرة .

ما الرأى فى بيع الأطفال !

على أن لى شيئاً آخر أسألك إياه وهو أنك قد أحسنت كل الإحسان فى بيان الآمال والرغائب التى تتجسم فى مخيلات الفتيات الجركسيات عندما يفارقن آباءهن وأمهاتهن ، ولكن ما رأيك وقولك فيمن يبيعون الأطفال الذين يكونون لم يبلغوا بعدُ السنّ الذى يتسنى لهم فيه أن يميزوا مركزهم ولا يكونون عرفوا فيه شيئاً من أحوال العالم ؟! قلت :

أيتها المدام ، إن هؤلاء لا يكتفون بأن تصبح بناتهم ذات يوم من السيدات وإنما يتشوقون إلى تربيتهن بحلى العلم والتربية التى ترفع شأن المرأة وتمكنها من السيادة ، وهم يحبون أولادهم محبة كلية إلى درجة أنهم يأبون إبقاءهم فى ذل الاحتقار لديهم .

إذاً أتعلمين من هم الذين يشترون الجوارى الصغيرات ؟ قالت :

لا جرم أن مجرد التفكر فى بيعهن قد أورث فؤادى دهشة بلغت مداها ، حتى إنه لم يبق لدى من مَيْل لأن أفتكر فيمن هم الذين يشترونهن[٣٢]! قلت :

أتمنعكِ هذه الدهشة من الإصغاء إلى ما سأُلقيه عليك من الإيضاحات؟!

---

(٣١) وهم الذين أساءوا معاملة الرقيق والأسرى وقهروا شعوبا بأسرها .

(٣٢) لها الحق فى ذلك ، فهذا ما تأباه الطباع السليمة ولا يرضاه دين من الأديان فضلا عن الإسلام !

قالت : كلا إنتى كلى آذان صاغية إليك ! قلت : إن بعضاً مما يشترون الجوارى الصغيرات هم « العقيمون » من البنين فيجعلونهن بمثابة « أولادهن »[٣٣].

والبعض الآخر يأخذون الجميلات منهن فيهيئونهن للسيادة بمعنى أنهم يعلمونهن القراءة والكتابة ، ويربونهن تربية بنات المدن العظيمة ليصبحن فى المستقبل بمقام السيدات ، وعليه فإن سيد الجارية التى يمكن فى المستقبل أن تباع بخمسمائة ليرة إلى الألف ليرة لا يقصر فى الاهتمام بها والإحسان إليها بما تصل إليه يد الإمكان ، وأكثر « العيال » التى تشترى الجوارى ليتزوجوا بهن إنما هى من هذا البعض الذى أشرت إليه .

والبعض أيضاً يربون هؤلاء البنات الصغيرات فى بيوتهم إلى أن يكبرن فيكن زوجات لأولادهم .

ويوجد قسم من هؤلاء الصغيرات تأخذهن « العيال الكبيرة » لتكن بمنزلة مصاحبات أو رفيقات لأولادها ، ولكل فتاة من ذوى البيوتات الكبيرة جارية[٣٤] مماثلة لها بالسن ، فهذه الجارية تتعلم القراءة والكتابة مع سيدتها ، وتتربى التربية عينها ، ومتى تزوجت

---

(٣٣) أبطل الإسلام التبنى بقوله : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيّن وكان الله بكل شيء عليما ﴾ [الأحزاب/ ٤٠] وقوله : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل * ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله .... ﴾ [الأحزاب ٤-٥] .

(٣٤) لابد من أن نضع فى الاعتبار أن بيع الآباء أبناءهم وبناتهم باطل - كما كان صنع الجراكسة ؛ فالحر لا يباع وما ترتب على الباطل فهو باطل .. ووجود مثل هؤلاء فى بيوت نسبب أو لآخر لا يبرر بيعهن ومن أجل هذا أبطل الإسلام التبنى درءًا للمفاسد، وقضاء على أسباب الشر . فهن أجنبيات عن أهل البيت ، ولا يحل اتخاذهن رفيقات أو مصاحبات لأولاد العائلات الكبيرة حتى ولو كان فى النية التزوج بهن ؛ فالغاية لا تبرر الوسيلة .

السيدة يطلق سراح هاته الجارية فى اليوم الذى يحتفل فيه بعرسها ، ومن المعلوم أن تهذيبها كسيدتها يؤهلها للحصول على زوج ملائم لها ، فهذه أيتها السيدة هى الأسباب التى تبعث على بيع الجوارى الصغيرات لأن الشراكسة بالنظر إلى ما يرون من هذه المعاملات الحسنة يبيعون بناتهم اللاتى يتيتمن بعد وفاة أمهاتهن فينقلونهن بذلك من حضن والدتهن إلى أحضان والدات أخريات يعتنين بخيرهن ، ويحصلن فى جانبهن على منتهى السعادة !!

قالت : لا أخفى عنك أن الإيضاحات التى سمعتها منك يخيل لى بالنظر إلى ما سمعته ووعيته قبلاً أننى لم آتِ إلى تركيا وإنما أتيت بطريق الغلط إلى بلاد أخرى[٣٥]!!

إن السبب فى ذلك منحصر فى كون الأوربيين الذين يأتون إلى « دار السعادة » يذهبون تواً إلى الفنادق فى « بك أو غلى » فيصرفون أوقاتهم بين أهالى هذا القسم من « دار السعادة » ليس إلا . ويتمكنون إلى حدٍّ مَّا من الوقوف على شئونهم وأما جهات « استانبول » و« اسكدار » و« داخل البوغاز » فلا يعرفون منها إلا الطرق والأرصفة : ولا أكتمك أن صور المعيشة فيها وطرق أصولها وعاداتها لا تنطبق على ما ماثلها فى « بك أو غلى » بل ليس بينهما قياس على وجه الإطلاق وزيادة على ذلك أن التراجمة الذين يتخذونهم بصفة أدِلّاء لا يعرفون على الحقيقة شيئاً مما خرج عن عالَم « بك أو غلى » ولما كانوا مضطرين إلى الإجابة عن الأسئلة التى تلقى عليهم كانوا يتكلمون بما يوافق عقلهم وما يلائم أفكارهم ، وبعبارة أوضح أنهم

(٣٥) لما رسخ فى أذهان الغربيين وما أشاعوه عن تركيا ، وهو مدح بما يشبه الذم !

يهرفُون بما لا يعرفون والسياح أيضا يظنون كلامهم صوابًا فيُنْزِلونه منزلة الحقائق ويسطرونه فى كتب سياحاتهم حتى إننا نكاد عند قراءة بعض هذه الكتب نتوهم وهما أنها تبحث فى إحدى البلاد التى لا نَعرفها !

وفى أثناء ذلك دخلت علينا « جارية حبشية » ولما كانت منذ ربيت إلى أن شبت مُحبة للزينة والانتظام كانت زينتها التى دخلت علينا بها حسنة جداً فلما رأتها « المدام » قالت باستغراب من تكون هذه ! أرى حلاها تفوق حسنًا وإتقانًا على حلى رئيسة الخدم عندكم ؟!! قلت :

إنها جارية قد تربت عندنا منذ الصغر إلى أن كبرت ، أما عملها فكثير فلما حان زمن عتقها عرضنا عليها الحرية فأبت .

قالت : لماذا ؟ قلت :

أبت ذلك محتجة أنها لن ترى فى الحرية ما تراه هنا من الراحة ولكن نحن قد تركناها مخيرة فيما ترغب أى أننا أعطيناها سندًا يحق لها بمقتضاه أن تعتق نفسها لنفسها متى شاءت .

ثم إن السيدة : نادت الحبشية المذكورة وأجلستها على مقربة منها وسألتها — بواسطتى — لماذا تأبين العتق والحرية ؟ فترجمت جواب الحبشية للمدام باللغة الفرنسية كما يأتى :

ما فائدتى من الحرية ؟ إننى متى رأيت زوجًا ملائمًا لى فحينئذ أعتق نفسى بنفسى !

فعندئذ سألتها المدام عن الزوج الذى ترغب فيه وكيف تحب أن يكون ؟ فأجابتها الحبشية إنها إذا لم تحصل على زوج يطعمها نظير

الطعام الذى تتناوله فى بيت سيدها ، ويكسوها بمثل ما تكتسى به من الألبسة ، ولا يحملها أكثر من الخدمة التى تقوم بها فى منزل مولاها فلا تتزوج[٣٦].

---

(٣٦) **كلمة أخيرة** : من واجبنا أن نعرف الحقائق الآتية عن الرّق :

● إن الإسلام هو محرر العبيد ، فهو لم يشرع الرق ولكنه شرع العتق ! فالرق كان موجودا قبل الإسلام وكانت القوانين جميعا تجيزه فى الديانات والفلسفات !

● وجاء الإسلام ليصلح ما أفسده غيره ، ويمهد للتقدم لمزيد من الإصلاح مع الزمن اتباعا لسنته فى التدرج فى التشريع .

● والإسلام جاء منذ أربعة عشر قرنا فحرم الرق كله ، ولم يبح منه إلا ما هو مباح إلى الآن ، وأن الأمم الإنسانية لم تأت بجديد فى هذه المسألة بعد الذى تقدم به الإسلام قبل ألف وأربعمائة سنة . فالذى أباحه الإسلام من الرق مُبَاح اليوم فى أمم الحضارة التى تعاهدت على منع الرقيق منذ القرن الثامن عشر إلى الآن ؛ لأن هذه الأمم التى اتفقت على معاهدات الرق تبيح الأسر فى الحروب ، واستبقاء الأسرى إلى أن يتم الصلح بين المتحاربين على تبادل الأسرى ، أو التعويض عنهم بالفداء والغرامة .

وهذا هو كل ما أباحه الإسلام من الرق – أو الأسر – على التعبير الصحيح .

● وكل الفرق بين الماضى وبين الحاضر أن الدول فى عصرنا هذا تتولى الإنفاق على تبادل الأسرى ، أو على افتداء بعضهم بالغرامة والتعويض . أما فى عصر الدعوة الإسلامية ، فلم تكن دولة من الدول تشغل نفسها بهذا الواجب نحو رعاياها المأسورين ! فمن وقع منهم فى الأسر بقى حتى يفتدى نفسه بعمله أو بماله إذا سمح له الآسرون بالفداء .

ومن يتأمل موقف الشريعة الإسلامية يجد أن الإسلام قد وضع حوافز لتحرير العبيد قبل الشرائع الوضعية بألف سنة . من ذلك :

١ – أن الإسلام جعل دولة المسلمين مسئولة عن تخليص العبيد من الرق إذ جعل من مصارف الزكاة إنفاقها فى « الرقاب » .

٢ – أن يحسب للأسرى حق فى الفيء والغنيمة من الحرب كغيرهم من المقاتلين .

٣ – حرَصَ الإسلام على التخفيف من وطأة الأسر ، ولم يجعله أمرا مقضيًّا بل خيّر بين المَنّ والفِداء ، وجعل إطلاق سراح الأسير مع المن عليه بذلك أفضل من الفداء ﴿ فإما مَنًّا بعدُ وإما فِداء حتى تضعَ الحربُ أوزارها ﴾ [سورة محمد : الآية : ٤] .

طعام « الإفطار » .. والمائدة التركية :

وفى أثناء ذلك أطلق « مدفع الإفطار » فذهبنا إلى غرفة الطعام وجلسنا إلى المائدة أما المدام فإنها بعد أن أمعنت النظر فى صينية الإفطار قالت : لقد جرت العادة عندنا أيضًا أن يكون على المائدة بعض أشكال متنوعة مما يسمونه عرفًا واصطلاحًا بـ « **مقدمات الطعام** » أو « **النقول** » (هو ردور)[37] فينتج من ذلك أن هذه العادة مألوفة عندكم أيضاً !

= ٤ – حث المسلمين على قبول الفدية من الأسير أو من أوليائه ﴿ **والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم** ﴾ [سورة النور : الآية ٣٣] .

٥ – كثرت وصايا النبى ﷺ بالأرقاء فقال فى بعض الأحاديث : « **لقد أوصانى جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم** » . وكان آخر وصاياه قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى وصيته « **بالصلاة وما ملكت أيمانكم** » .

ونهى المسلمين فى الحديث الذى رواه الشيخان وأبو داود أن يتكلم أحد عما ملك فيقول : «**عبدى وأمتى**»، وإنما يذكرهم فيقول : «**فتاى وفتاتى**» . وكان ﷺ يعلم صحابته بالقدوة فى معاملة الرقيق كما يعلمهم الفريضة والوصية ، فكان يتورع عن تأديب خادمته ضربا بالسواك ، وقال لمن أرسلها فتباطأت فى الطريق : « **لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك** » [الحديث فى مجمع الزوائد كتاب البعث وإسناده جيد عند أبى يعلى والطبرانى] .

٦ – ولقد حرص الإسلام على تحرير الأرقاء فجعل فك الرقبة اقتحام عقبة كبيرة فى طريق المسلم يجب أن يسعى إليه : ﴿ **فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة** ﴾ [سورة البلد : الآيات : ١١–١٣] كما جعل العتق كفارة عن كثير من الذنوب ، فالحنث فى اليمين ، والقتل الخطأ ، والظّهار ، وكفارة إفطار الصائم عمدًا من غير عذر تحرير رقبة . وهكذا نجد أن الإسلام قد جاء فوجد الرق مشروعا فحرمه، وجعل الدولة ملتزمة بهذا التحرير ، ووضع للأفراد من الوسائل ما يدفعهم إلى تحرير العبيد ، وبذلك كان الإسلام محررا للعبيد .

(٣٧) من المشهيات أو فاتحات الشهية .

عادات رمضانية

أجل إنها عادة مخصوصة بشهر رمضان ومماثلة للمائدة التى أنزلت على حضرة عيسى عليه السلام[٣٨].

حديث حول مائدة عيسى – عليه السلام .

أما الراهبة التى كانت ملازمة للصمت المطلق و لم تشترك معنا بالحديث بل ربما كانت لم تهتم بمحاورتنا أصلاً فإنها عندما سمعت منى هذا الجواب التفتت إلىّ قائلة : الراهبة : ما هى مائدة عيسى التى تقلدونها[٣٩]؟ قلت :

لا يخفى أن الحواريين وإن كانوا قد أبصروا لحضرة عيسى عليه السلام أعمالاً كثيرة من خوارق العادات[٤٠] إلا أن جميع ذلك كان من المعجزات الأرضية فلما رغبوا فى أن يبصروا معجزة سماوية قالوا

---

(٣٨) صفة مائدة عيسى – عليه السلام – وأنواع طعامها لم يجىء فيه دليل يعول عليه – كما جاء فى التفسير الوسيط ، ولعل الكاتبة أرادت أن تخرج الراهبة عن صمتها كما يبدو . وتستدرجها لتعرف ما وراءها وما تكنه بعد هذا الصمت الطويل ! وقد أفلحت فى ذلك ، وإن كانت قد خالفت الصواب !

(٣٩) نحن المسلمين – وإن كنا لا نفرق بين أحد من رسله – فإننا لا نقلدهم فى مثل تلك العادات والتقاليد ، وعلينا أن نخالف أهل تلك الديانات فيما درجوا عليه من مثل أعيادهم وزيهم وعاداتهم . وقد جاء فى الأمر بالاتباع والنهى عن الابتداع للإمام السيوطى : « ومن البدع والمنكرات مشابهة الكفار وموافقتهم فى أعيادهم ومواسمهم الملعونة ، كما يفعل كثير من جهلة المسلمين فى مشاركة النصارى وموافقتهم فيما يفعلونه فى خميس البيض ، وفى المواليد ، وفى الشتاء من إيقاد النار ، وصنع قطائف ، وصبغ البيض ، وخبز أقراص ، وشراء بَخُور ، وخضاب النساء والصبيان .. وذلك باطل لا أصل له فى دين الإسلام . فجميع ما يحدثه المسلم فهو من المنكرات !

(٤٠) مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله !

له : يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟! أجابهم قائلاً : **إذا كنتم مؤمنين فاتقوا الله.** فقالوا له حينئذ : نريد أن نأكل من هاته المائدة ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم علم اليقين أنك من الصادقين ، ثم نكون على المائدة المذكورة من الشاهدين .

فقال حضرة عيسى : **« يارب أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولناوآخرنا وآية منك على نبوتى » .**

فقصة المائدة مذكورة فى « القرآن الكريم » على الوجه المشروح[41]! قالت الراهبة : فهل نزلت مثل هذه المائدة ؟! قلت :

نعم فقد ذهب المفسرون إلى أنه بناء على دعاء حضرة عيسى أنزلت الملائكة . مائدة من السماء[42].

وكانت مائدة مغطاة بمنديل قد نزلت على حين كانت من طرفيها الأعلى والأسفل ملفوفة بقطعة من نسيج ، فرفع عيسى – عليه السلام – غطاءها بعد إذ شكر للحق سبحانه وتعالى ، وقد رأى الحواريون ذلك رأى العين فكان عليها مأكولات متنوعة ، وقد اختلفت الروايات فى أشكال وأنواع هذه المأكولات والرواية المشهورة

---

(٤١) تضمنتها الآيات من ١١٢ إلى ١١٥ من سورة المائدة .

(٤٢) بناء على أن قوله تعالى : **﴿ قال الله : إنى منزلها عليكم ... ﴾** وعد ، والله لا يخلف الميعاد .

تفيد أنه قد كان على المائدة المذكورة : « خبز وسمك وبعض الخضروات وسمن وعسل وجبن ومقددات[٤٣].

فنحن نجمع مثل هذه الأشياء ونرتب مائدة الإفطار على هذا الوجه وبعد الإفطار منها تبركًا نبدأ بتناول طعام المساء الأصلي[٤٤].

---

(٤٣) هذا وقد ورد فى [إنجيل متى فقرات ١٥-٢١ من إصحاح ١٤] ذكر لمائدة أخرى كانت معجزة لعيسى - عليه السلام - فقد بارك خمسة أرغفة وسمكتين فأكل منها خمسة آلاف رجل غير النساء والأطفال حتى شبعوا جميعا ، وما بقي من فضلات طعامهم اثنتا عشرة سلة . فلعل هذه المائدة هى التحريف لما جاء فى القرآن الكريم فقد جاء ذكر قصة « المائدة » فى أربع آيات من السورة التى سميت باسمها وهى : (الآيات من رقم ١١٣-١١٥) . وهى من النعم التى أنعم الله بها على عبده ورسوله عيسى عليه السلام .

وقد طلبوا المائدة لأربعة أسباب : أن يأكلوا منها ، وأن تطمئن قلوبهم بأنهم على الحق بانضمام المشاهدة واللمس والذوق والشم إلى علم السمع . وأن يعلموا - علم اليقين - أنه - عليه السلام - قد صدقهم فيما جاءهم به بعد أن علموه بالبرهان . وأن يكونوا على هذه المعجزة من الشاهدين عند الذين لم يروها من قومهم ، ليؤمن كافرهم ، ويزداد الذين آمنوا إيمانا . ولقد جاء فى التفسير الوسيط : ﴿ قال الله إنى منزلها عليكم ... ﴾ [الآية : ١١٥] . هذا وعد من الله تعالى . بإنزال المائدة أجاب به سؤال عيسى ، وهو يقتضى : أنه قد أنزلها ؛ فإن وعده الحق .

أما صفة المائدة ، وأنواع طعامها فلم يجيء فيه دليل يُعَوَّل !

ولهذا ينبغى ألا ينساق القارىء إلى ما يروى فى ذلك من روايات ، ويفوض الحقيقة لله .

وما أحسن قول بعض العلماء : العلم بذلك لا ينفع ، والجهل به لا يضر .

(٤٤) ما يستحب الإفطار عليه رُطَبات أو تَمرات ، أو يَحْسُو حسواتٍ من ماء إن لم يجد .

وقد كان رسول الله ﷺ يؤثر الإفطار على الحلو ولنا فى رسول الله أُسْوَةٌ حسنة وليس فى ديننا شيء عن ذلك التبرك .

وعقيب هذه المحاورة تكلمت الزائرتان عن طعام الأتراك فوقعت لديهما حلوى « صدر الدجاج » موقع الاستحسان التام وأثنيتا على لذتها ، واعترفتا بأن الطعام إجمالا خفيف جدًا ثم انتقلنا إلى البحث عن الصيام فبعد أن أحاطت المدام علما بأن الصيام هو عبارة عن عدم الأكل والشرب من قبل الفجر إلى غروب الشمس .

قالت بلسان رقيق للغاية : إن الصيام على هذا الوجه إنما هو عبادة صعبة جدًا وكأنها كانت تحاول أن تجعلنا نعترف نحن أنفسنا بقدر هذه الصعوبة ! فقلت لها حينئذ :

ليس فى ذلك من صعوبة على الإطلاق بالنظر إلى ما ينالنا من الألطاف الإلهية . لا جَرَمَ أن « الانقطاعات »[٤٥] و« الرياضات » عند المسيحيين ليست بأقل كلفة من الصيام[٤٦] ؛ حتى أنه على حين أن أرباب الزهد والتقوى فى النصرانية من رجال ونساء – وهم الذين انقطعوا إليهما وتجردوا من سائر الأشياء – لم يكونوا بنادرين نرى أنهم لا يكاد يمُرّ على خواطرهم قضية كونهم عرضوا أنفسهم لصعوبة خارجة عن حد الاستطاعة بانقطاعهم عن الانتفاعات واللذات الدنيوية ، فما تقولين بذلك يا عزيزتى ؟!

الراهبة : أقول إنه مهما حصل من العبادة فى سبيل الشكر للطف الله وإحسانه يكون قليلاً ! قلت :

لا ريب فى ذلك حتى أنه قد ورد النص فى القرآن الكريم بحق الرهبان حيث تفضل الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ **لتجدن أشد**

---

(٤٥) انقطاعهم عن اللذات والمنافع الدنيوية إلى الرهبانية ولا رهبانية فى الإسلام .

(٤٦) ويرحم الله أمير الشعراء حيث قال فى الصوم هو :

« **تأديب بالجوع ، وخشوع لله وخضوع ، ظاهره العذاب ، وباطنه الرحمة** .. » .

الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ﴾ : « علماء» ﴿ ورهبانًا ﴾ « زهاداً » ﴿ وأنهم لا يستكبرون ﴾[٤٧]. « لا يأبون قبول الحق » .

وبعد أن انتهينا من الأكل نهضنا عن المائدة وسرنا إلى القاعة حيث تناولنا القهوة ، وبعد هنيهة أخذت أترجم بين الزائرتين وصاحبة المنزل وأفراد العائلة ثم إن « المدام » بناء على الرغبة التى أظهَرَتْها قبلاً سارت بصحبة بعض أفراد العائلة للتفرج على غرف منزلنا وكنت وقتئذ مرافقة لهم ، وكانت فى إحدى الغرف واحدة تقرأ « تفسير المواكب » وحيث إنها كانت تقرؤه وهى مستورة الرأس بكمال الاحترام التفتت الراهبة إلى وقالت سائلة :

هل إن هذه السيدة تقرأ القرآن ؟ . قلت :

تقرأ تفسيره باللغة التركية .

الراهبة : بأى شىء تتعلق الآيات التى تقرؤها يا ترى ؟

فسألت القارئة بقولى : فى أى سورة تقرئين ؟ قالت : سورة « آل عمران »[٤٨].

فأفهمت الراهبة جوابها باللغة الفرنسية . قالت :

من تعنين بـ « عمران » ؟! قلت :

---

(٤٧) المائدة/٨٢ .

(٤٨) هى السورة الثالثة بعد الفاتحة والبقرة مدنية وآياتها ٢٠٠ .

يوجد باسم « عمران » اثنان : **الأول** : والد « حضرة سيدنا موسى عليه السلام »[٤٩] **والثانى** : « والد حضرة مريم » والاثنان من بيوت بنى إسرائيل . قالت الراهبة : بأى مناسبة ورد هنا ذكر عمران ؟ قلت :

إن « عمران » قد توفى بينما كانت زوجته « حنّة » حاملاً وقد نذرت الطفل الذى ستضعه لخدمة بيت المقدس ، لأنه فى ذلك الزمن كانت هناك عادة جارية عند ذوى البيوتات أن يقدموا أولادهم الذكور لخدمة بيت المقدس ، فحنّة أيضاً - على أمل أنها ستضع ولدا ذكرا - كانت نذرته لخدمة بيت المقدس ، ولما وضعتها أنثى سمتها « مريم » ومعناها بالعبرانية : « عابدة وزاهدة » . ولكن بما أنها لم تضع ذكرا أصبحت حزينة متحسرة وقالت : ﴿ **رب إنى وضعتها أنثى** ﴾[٥٠] أما جناب الحق - سبحانه - فقد قبلها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا ولما عرضتها « حنّة » لخدمة بيت المقدس لأجل أن تفىَ بنذرها تسابق الجميع لأجل تربيتها لأنها بنت إمامهم ووقعت بينهم المنافسة فاقترعوا عليها فيما بينهم فكانت القرعة لحضرة

---

(٤٩) المراد بعمران الذى سميت السورة باسمه - كما فى التفسير الوسيط - والد مريم وهو ابن « ماثان » .

والمراد بآل عمران : ابنته مريم وابنها عيسى عليهما السلام وليس هناك دليل لمن قال إنه : « عمران بن يصهر أبو موسى » وآله : « موسى وهارون » ؛ فإن السورة تسمى « سورة آل عمران » ولم تشرح قصة عيسى ومريم فى سورة أبسط من شروحها فى هذه السورة أما قصة موسى وهارون فلم يذكر منها شىء هنا فى سورة آل عمران .

وامرأة عمران هى « حنة » بنت « فاقوذا » كما رواه ابن إسحق بن بشر عن ابن عباس والحاكم عن أبى هريرة وهى جدة عيسى عليه السلام لأمه . وجُعل زكريا - عليه السلام - كافلا لها لتقتبس منه العلوم والمعارف . وكان زوج أختها كما ورد فى الصحيح « فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة » . ويحيى بن زكريا .

(٥٠) آل عمران : ٣٦ .

« زكريا » بتربيتها وفى أثناء ذلك أتته البشرى من لدن الله أنه سيأتيه ولد يكون اسمه « يحيى » على أن فى القرآن الكريم سورة منسوبة لمريم يقال لها « سورة مريم » فيها تفصيل هذه القصة(٥١).

الراهبة : أرجو تلاوة هذه السورة لنسمعها .

وحينئذ فتحت القارئة سورة مريم وقامت بتلاوة الآيات المتعلقة بحضرة « زكريا »(٥٢) وحضرة « مريم »(٥٣) مع تفاسيرها .

أما أنا فبادرت بترجمة ذلك* بالفرنسية فأفهمتها أن حضرة « مريم » رأت جبرائيل عليه السلام بصورة بشر وأنه نفخ الروح فى طوق قميصها وبينت لها تفصيلاً أن حضرة « مريم » عندما شعرت من نفسها بعلائم وضع الحمل جاءت إلى جذع النخلة وقالت : بأى وجه أقابل قومى ؟! يا ليتنى مِتّ قبل هذا وكنت نسيًا منسيا ! ثم كيف جاءها جبرائيل وأوصاها ؟، وكيف تكلم حضرة عيسى وهو فى المهد ؟

حوار حول ولادة عيسى – عليه السلام :

وما كدت أنتهى من هذا البيان المأخوذ من القرآن الكريم والتفاسير حتى ظهرت دلائل التأثر العظيم على وجه الراهبة وقالت :

يتضح من ذلك أنكم تعتقدون أن حضرة عيسى ولد بلا أب ! فأجبتها بما يأتى : كيف وعندنا أن من لا يعتقد هذا الاعتقاد يكون كافراً !

---

(٥١) وهى السورة رقم ١٩ مكية وآياتها ٩٨ .
(٥٢) وهى الآيات من ١–١٥ .
(٥٣) وهى الآيات من ١٦–٣٦ .

* المراد تفسير القرآن لا القرآن .

فنحن لا نفرق بين أحد من الأنبياء(٥٤).

لكن نعلم أن ستة منهم يعنى « محمد » و« عيسى » و« موسى » و« إبراهيم » و« نوح » و« آدم » عليهم الصلاة والسلام هم أفضل الأنبياء(٥٥) فإن الله الذى خلق آدم من التراب لا يرتاب أحد فى كونه قادرًا أن يخلق إنسانًا آخر بلا أب . وهذا لا يمكن استبعاده لا عقلاً ولا حكمة أيضًا .

حوار حول الأناجيل والبشارة بمجيء نبى بعد عيسى عليه السلام :

قالت الراهبة : أتعتقدون أنتم بالأناجيل الشريفة ؟! قلت :

أجل . نعتقد أن الحق جل شأنه قد نزّل على حضرة سيدنا عيسى كتابًا اسمه « الإنجيل » الشريف وقد ورد ذكر الإنجيل بالتصريح فى

---

(٥٤) يشهد لذلك قوله تعالى : ﴿ **لا نفرق بين أحد من رسله** ﴾ [البقرة : ٢٨٥] **فلا نقول** : نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل أهل التوراة والإنجيل بل نؤمن بهم جميعا ، فهم رسل الله إلى خلقه ، فمن كفر بأحدهم ، فهو كافر بهم جميعا ، فلا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلًا .

(٥٥) كأنها تعنى أولى العزم من الرسل أولئك الذين ورد ذكرهم فى الآية الأخيرة من سورة الأحقاف ﴿ **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل** ﴾ ويقول ابن كثير فى تفسيرها : وقد اختلفوا فى تعداد أولى العزم على أقوال . وأشهرها : أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ .

وقد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء فى آيتين من سورة الأحزاب والشورى .

أما مسألة التفضيل بين الأنبياء فلقد روى الإمام مسلم حديثاً طويلاً عن أبى هريرة باب فى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « **لا تفضلوا بين أنبياء الله** » جاء فى نهايته « **ولا أقول : إن أحداً أفضل من يونس بن متى** » الحديث رقم ١٦١٢ مختصر صحيح مسلم للمنذرى . و(مسلم . ٧/١٠٠ – ١٠١) .

عدة مواضع من القرآن الكريم وذكر فى القرآن بعض مندرجات « الإنجيل الشريف » وقد صرح القرآن الكريم : أن حضرة عيسى عليه السلام بَشّر بنبينا ﷺ بقوله : ﴿ **ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد** ﴾(٥٦) قالت الراهبة : ما المعنى من ذلك ؟ إننى لا أعرف مثل هذه الرواية(٥٧)! قلت : فلننظر فى « الفصل الرابع عشر » و« الخامس

---

(٥٦) سورة الصف/٦ . والمراد بالمندرجات ما يتضمنه ويندرج بين طياته .

(٥٧) يؤخذ من المخطوطات التى عثر عليها بجوار البحر الميت أن عيسى – عليه السلام – كان « مسيا » المسيحيين و« مَسِيًا » كلمة آرامية معناها الرسول . وأن هناك مسيا آخر سيأتى بعده ، وقد قال عنه المسيح : «**ومتى جاء المعَزّى– البارقليط– فهو يشهد لى**» ومحمد ﷺ هو الذى جاء بعده فشهد له وأنصفه ودافع عنه وعن العقيدة الصحيحة .

وكلمة «المعَزّى» هذه التى وردت فى إنجيل يوحنا هى ترجمة : (paraclete) ومعناها : محمد أو أحمد أو محمود .

وهناك كلمة تشابهها وهى : (Paraclyte) ومعناها المعزى .. فإن كانت الأولى فإن عيسى – عليه السلام – يكون قد بشر بمحمد ﷺ صراحة فيما ذكره إنجيل يوحنا ، وهذا أمر لا لبس فيه ولا غموض ، وإن كانت الثانية « المعَزّى » يكون عيسى قد كنى عن رسول الله بالمعزى بدلا من محمد ؛ لأن الأوصاف التى ذكرت فى إنجيل يوحنا لا تنطبق إلا على محمد ﷺ : قلعجى : محمد فى الكتب المقدسة . مجلة حضارة الإسلام ، عدد ١–٢ سنة ٨ .

وقد جاء فى « إنجيل برنابا » الذى استبعدته الكنيسة فى العهد الأول وحرم البابا جلاسيوس قراءته سنة ٤٩٢ م .

وقد أعلن تشارلس فرنسيس بوتر فى كتابه « السنين المفقودة من عيسى تكشف » ص ١٢٧ ما يلى : « لدينا الآن وثائق كافية تدل على أن المخطوطات المكتشفة فى البحر الميت هى حقيقة « هبة الله إلى البشر » لأن فى كل ورقة تفتح تأتى إثباتات جديدة على أن عيسى كان كما قال عن نفسه «ابن الإنسان» أكثر منه « ابن الله » كما ادعى عليه وهو منه برىء ، ويقول فى ص ١٢ « من العسير العثور على كتاب فى العهد القديم لا يحتاج إلى تصحيحات تحت ضوء مخطوطات « البحر الميت » . وكذلك ليس هناك كتاب فى العهد الجديد لا يحتاج إلى تفسير كامل للآيات الأساسية التى تقوم عليها الشريعة » انظر : إبراهيم خليل أحمد : محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن ص ٩٢–٩٣ .

عشر » و« السادس عشر » من إنجيل يوحنا . قلت هذا ، وأخرجت نسخة الأناجيل الفرنسية من المكتبة ثم فتحت هذه الفصول الثلاثة وقرأت « الآية السادسة عشرة » و« التاسعة والعشرين » من « الفصل الرابع عشر » و« الآية السادسة والعشرين » من « الفصل الخامس عشر » و« الآية الأولى » و« السابعة » و« الثامنة » و« التاسعة » و« العاشرة » و« الثالثة عشرة » و« الرابعة عشرة » من « الفصل السادس عشر » المتعلقة بمجيء نبي بعد حضرة سيدنا عيسى – عليه السلام – قالت الراهبة : ليس فى هذه الآية معنى يشير إلى مجيء نبى بعد حضرة سيدنا عيسى .

والكنيسة قد فسرتها تفسيرًا يختلف عما ذهبت إليه » ولما كان « إنجيل يوحنا » دقيقًا جدا كان لا يمكن لكل إنسان أن يفهمه .

قلت : نعم إن فهـم « إنجيل يوحنا » كما ينبغى لفى غاية الصعوبة لكن من قراءتنا لهذه الآية يستفاد : فى أية حالة « **أنه سيأتى نبى آخر بعد حضرة سيدنا عيسى** » . قالت :

والذات الذى بشر به أنه سيأتى قد ورد ذكره فى الإنجيل باليونانية (البار قليط) ومعناه فى الفرنسوية (المعزى) نحن نظن أن « البار قليط » محرف عن (بارا كليت)[٥٨] . قالت : إننى لم أسمع قط بكلمة (بريكليت) .

---

(٥٨) اسم أحمد ﷺ هو بير كليت باللغة العبرانية و« بير كليتوس » باللغة اليونانية ، والنصارى حرفوه إلى « باراكليت » وبارا كليتوس .

وبير كليت جاءت فى بعض الكتب « بيراكليت » وجاءت « بير كليت » وجاءت « فير قليط » و« المعزّى » الذى يعزى بنى إسرائيل فى ضياع ملكهم ونبوتهم عوضا عن المسيح .

قلت :

أما أنا فقد رأيتها فى الكتب الفرنسية(٥٩).

قلت هذا ، وأخرجت ترجمة القرآن الكريم بالفرنسية : من المكتبة وقرأت الآية السادسة من سورة الصف وأشرت إلى حاشية المترجم (فارميرسكى) المتعلقة بذلك وهأنذا أنقلها حرفيًا .

ذكرت المنقول حرفيًا بالفرنساوية ونحن نعربه كما يأتى : « إن لمحمد ﷺ - عند المسلمين عدة أسماء(٦٠) بمعزل عن النعوت وبعض

---

(٥٩) يقرر إنجيل « برنابا » أن « مسيا » أو « المسيح » المنتظر الذى ورد ذكره فى « العهد القديم » ليس « يسوع » بل « محمدا » ﷺ وقد ذكر « محمدا » ، أى : لفظا يفيد مدلوله شخصا كثر حمد الناس له وثناؤهم عليه . فى كثير من فصوله : « فارقليط » تعريب لكلمة « بيركلتوس » اليونانية ومعناها : الذى يحمد حمداً كثيرا . وقال : إنه رسول الله . ولكنهم ينكرون حسدا وحقدا .

وَيَقُصّ الدكتور أحمد حجازى السقا فى كتابه « البشارة بنبى الإسلام » أنه التقى « بقُسّص » نصرانى كان يظنه مسيحيا مثله فسأله فى الطريق : أمحمد نبى المسلمين لا يشير إليه الكتاب المقدس ؟

قال : يشير إليه فى آيات كثيرة .. ثم سرد له كثيرا من تلك الآيات ! وصدق الله ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ !

ومن أراد المزيد فليرجع إلى رسالة الدكتوراة للدكتور : محمد حجازى السقا وموضوعها : « البشارة بنبى الإسلام فى التوراة والإنجيل » فهو مرجع للباحثين عن الحقيقة ، ليقطعوا الشك باليقين وهو موجه إلى القراء مسلمين وغير مسلمين وموثق بصور من آيات التوراة والإنجيل بلغات مختلفة حقق فيها كلمة « فيراقليط » فى أصلها اليونانى .

(٦٠) ذكر ابن كثير فى تفسير سورة الصف قوله : وما أحسن ما أورد البخارى : « إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » رواه مسلم من حديث الزهرى به نحوه .

وقال أبو داود الطيالسى حدثنا المسعودى .. عن أبى موسى قال : سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء منها ما حفظنا ، فقال : « أنا محمد ، وأنا أحمد ، والحاشر ، والمقفى ، ونبى الرحمة ، والتوبة ، والملحمة » .

الصفات وهى تبلغ نحو المائة عدًا فهو يسمى : « أحمد » و« المعظم » ، و« المصطفى » و« المختار » ومحمود و« المبجل » إلخ ..

فكلمة (ما هو ميت) المستعملة عندنا مأخوذة عن محمد (المبجل) وهذه الكلمة آتية من أصل كلمة « أحمد » ومعناها تمامًا وهى : (أى كلمة : أحمد) مماثلة لكلمة « بارا قليط » باليونانية أى المعظم والمسلمون يدعون أن « يسوع المسيح » – عليه السلام – وعد بمجيء « محمد » أو « أحمد » من معنى « بريكيلتوس » [إنجيل يوحنـــا السادس عشر[٦١]: ١١] ، وأن « البار قليـــط » : « باراكليتوس » الذى يفسر بنزول الروح القدس ليس إلا ، تغيّر عن « بريكيلتوس » وهذا يُصور ضعف إيمان المسيحيين .

سلامة موقفنا فى إيماننا بجميع الأنبياء :

قالت المدام : قد توسعتما بهذا البحث الدينى . ونتائج هذه الحقائق إنما هى من الأشياء التى لا تظهر إلا فى الآخرة !

---

(٦١) يوحنا من كبار الحواريين الاثنى عشر . ويقول التاريخ المسيحى : إن يوحنا كان أحب الحواريين إلى المسيح وأقربهم إليه . وينسب إليه إنجيل من الأناجيل الأربعة المعتمدة عند المسيحيين . وهو آخرها تأليفا باللغة اليونانية . وكان تأليفه إياه حوالى سنة ٩٠ بعد الميلاد على أرجح الأقوال .

ومن يتأمل يجد أن القرآن الكريم يحدثنا عن كتاب سماوى أنزله الله على عيسى ، وهذه أسفار كتبها أناس من البشر بأقلامهم بعد رفع المسيح بنحو ثلاثين سنة ، بل إن آخر إنجيل منها وهو إنجيل يوحنا قد كتبه صاحبه بعد رفع السيد المسيح بنحو خمس وخمسين سنة .

وقد نعى القرآن الكريم فى أكثر من آية على المسيحيين تحريفهم لكتاب الله فى أسفارهم المزعومة . بل إن جماعة العلماء الذين أشرفوا على تحرير المسائل المسيحية فى دائرة المعارف الفرنسية المعروفة باسم « لاروس القرن العشرين » ليذهبون إلى أن التحقيق العلمى والتاريخى يؤيد أن هذه الأناجيل قد كتبها أناس غير الحواريين والتلاميذ والتابعين الذين تنسب إليهم .

قلت : لا شك ولا ريب ! غير أننا نحن من الآن لا يمسنا خوف واضطراب من هذا الوجه على الإطلاق فإن سيدنا ونبينا محمداً ﷺ قد جعل أمته تعرف الأنبياء السالفين – عليهم السلام – وتصدقهم وكأنا بذلك قد استحضرنا توجههم وشفاعتهم لأجلنا .

مشاهدة إحدى صلوات المسلمين :

وعند ذلك أذن المؤذن للعشاء فنهض أهل المنزل لأداء صلاة « التراويح »[٦٢] وحينئذ سألت الزائرتان عن سبب ذهابهن . فأنبأتهما أنهن ذاهبات لأداء الصلاة التي تؤدى فى ليالى رمضان قالت المدام :

ألا تذهبين أنتِ لأداء هذه الصلاة ؟! قلت :

إن وظيفة إكرام الضيوف منوطة بى فى هذا الوقت ، وسأذهب لتأديتها[٦٣] بعدئذ .

قالت : أيمكن لنا أن نحضر ونرى هذه العبادة ؟! قلت :

إذا رغبتما فى تحمل المشقة فلا بأس من ذلك إن مثل هذه العبادات عندنا غير ممنوع على أحد أن ينظرها ودين المسلمين ظاهر للعيان وفى ذلك أقوال مشهورة . قالت :

– نكون فى غاية الامتنان .

---

(٦٢) التراويح : جمع ترويحة . وأصل الترويحة : إيصال الراحة وهى الجلسة ، وقد سميت بذلك ترويحة شهر رمضان ، لاستراحة الناس بعد أربع ركعات بالجلسة .

ثم سميت كل أربع ركعات ترويحة مجازا ، لما فى آخرها من الترويحة .

(٦٣) بناء على : أن وقتها من بعد صلاة العشاء ، وينتهى بطلوع الفجر .

وتصح قبل الوتر وبعده ، وعلى أنها ليست فرضا . وعلى أنه يجوز أن تصلى فى جماعة كما يجوز أن تصلى على انفراد .

صلاة التراويح :

فقلت : تفضلا وسرت بهما إلى محل النساء المفروز[٦٤] عن محل الرجال وهناك أخذتا فى مشاهدة ومعاينة النساء اللاتى يؤدين الصلاة جماعة وكانتا تسألانى عن معانى « سورة الإخلاص » التى تتكرر بعد كل سلام[٦٥] فأترجمها لها : قالت السيدة :

---

(٦٤) المفروز : المنحّى .

(٦٥) من يتأمل صلاة التراويح اليوم وينظر كيف كانت حال تشريعها وأيام القرون الأولى يرى أن الناس قد ذهبوا بكل مزاياها وعطلوا معظم شعائرها وأخذوا بدعًا سيئة لا يرضاها الله ولا رسوله ولا مسلم له على الشرع غيرة ؟ فترى العوام يشتركون جميعا فى الذكر والتسبيح بين كل ترويحتين ، ويحدثون ضجة هائلة لا تجعل أثرا للخشوع فى القلوب .

ومن البدع فى العبادات ختم الصلاة على الهيئة المعروفة من رفع الصوت به وفى المسجد والاجتماع له والمواظبة عليه ؛ ومن هنا يعلم كراهة ما أحدث الناس فى صلاة التراويح من قولهم عقب الركعتين الأوليين منها : الصلاة والسلام عليك يا أول خلق الله ونحو ذلك قبل الأخيرتين، وبعضهم يترضى عن الصحابة وكل ذلك شرع لما لم يشرعه الله على لسان نبيه ﷺ .

وتكرار « سورة الإخلاص » بعد كل أربع ركعات بالصورة التى نراها على أنه شعار لصلاة التراويح هو من تلبيس الشيطان عليهم وهو أيضا بدعة إضافية .

ومن استحسن فقد نصب من نفسه شرعا غير الشرع ولو كان ذلك جائز لجاز لأهل العقول من غير أهل العلم أن يستحسنوا ويشرعوا !

والذى جاء فى الفقه على المذاهب الأربعة بهذا الشأن ما يلى : يجلس الإمام بعد كل أربع ركعات للاستراحة . هكذا كان يفعل الصحابة ـ رضوان الله عليهم – ولهذا سميت تراويح .

وفى حكم هذا الجلوس تفصيل فى المذاهب . وللمصلى أن يشتغل بذكر أو تهليل . أو يسكت » .

ويرى الحنابلة : أن هذا الجلوس مندوب ، ولا يكرهُ تركه ، والدعاء فيه خلاف الأولى .

ومن البدع سرد جميع ما فى القرآن من آيات الدعاء فى آخر ركعة من التراويح بعد قراءة سورة الناس .

لا جرم أن هذا التكرار لسورة الإخلاص له قدر فإن بها ألفاظًا عظيمة وجميلة جدا[٦٦].

وعندما قُرئت الآية الكريمة وهى ﴿ ربنا آمنا .... الخ ﴾[٦٧] بعد سورة الإخلاص فى آخر سلام التراويح رفعت الجميع أيديهن إلى أعلى فسألتنى الزائرتان بقولهما : ما الذى تقرؤه المصليات فقلت : إنها آية من القرآن الكريم وهى حكاية كلام « الحواريين » ومعناها هكذا : « يا ربنا قد آمنا بالكتاب الذى أنزلته علينا واتبعنا الرسول [عيسى] فاكتبنا مع الشاهدين[٦٨]. وهذه الآية تقرأ عادة فى نهاية صلاة التراويح التى تقام فى شهر رمضان .

حوار حول الحواريين :

فقالت الراهبة : ما قولكم أنتم فى الحواريين ؟

---

(٦٦) سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن كما ورد فى البخارى قال رسول الله ﷺ « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة » ؟ فشق ذلك عليه ، وقالوا : أينا يُطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : « الله الواحد الصمد ثلث القرآن » تفرد بإخراجه البخارى كما جاء فى تفسير ابن كثير . لكن تخصيص التراويح بقراءة سورة معينة أو قصر قراءة سورة الإخلاص على ما بين الترويحتين بالصورة التى نراها الآن وكما حكت الكاتبة مما لا يستند إلى دليل .

(٦٧) الآية : رقم ٥٣ من سورة آل عمران .

ودعاء القرآن يصلح لكل زمان ومكان ولا عبرة فيه بخصوص السبب . وقد ذكر ابن كثير فى تفسير هذه الآية قول ابن أبى حاتم : « حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع حدثنا اسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس - رضى الله عنهما فى قوله : ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ قال : مع أمة محمد ﷺ .

(٦٨) ونحن المسلمين حين ندعو بها نقصد كل ما أنزل الله من الكتب وآخرها القرآن الذى أنزله على رسوله خاتم الأنبياء محمد ﷺ وفى اتباعنا للنبى ﷺ إيمان بجميع الأنبياء .

قلت : هؤلاء نعلم أنهم من خواص أصحاب حضرة سيدنا عيسى عليه السلام .

الراهبة : أتقولون إن حضرة سيدنا عيسى هو « ابن الله » . قلت :

– كلا نقول : إنه عبد الله ومن كبار الأنبياء(٦٩).

الراهبة : أما تعتقدون أنه ولد بلا أب ؟ قلت :

نعم كما تقدم سابقًا .

إن الحق سبحانه وتعالى خلقه بلا أب على وجه خارق للعادة .

وخلق حضرة « آدم » من التراب بلا أب ولا أم(٧٠). وقد عبر عن « آدم » أنه ابن الله فى « آخر آية من الفصل الثالث من إنجيل لوقا » .

---

(٦٩) لعلها تقصد أولى العزم من الرسل وهم خمسة ذكرهم الله – عز وجل – على انفرادهم فى موضعين من كتابه :

الموضع الأول : فى سورة الأحزاب وهو قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ [الآية ٧ من سورة الأحزاب] .

الموضع الثانى : فى سورة الشورى . وهو قوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ الآية [الشورى : ١٣] .

(٧٠) يشهد لهذا قوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ [٥٩ – آل عمران] .

جاء فى التفسير الوسيط فى سبب نزول هذه الآية على الرسول – ﷺ – عند حضور وفد نجران . وكان من جملة شبههم : أن قالوا : يا محمد ، لما سلّمت أنه لا أب له من البشر ، وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى . فقال : « إن آدم ما كان له أب ولا أم .. ولم يلزمه أن يكون ابنا لله تعالى ، فكذا القول فى عيسى » عليه السلام .

وورد التصريح فى التوراة بعد وقعة « قابيل وهابيل » :
أن أولاد آدم قد انقسموا إلى فرقتين[٧١]:

فكانوا أبناء الله » وأبناء الشيطان ولو اقتضى أن يكون الحق – جلا وعلا – له أباً حيث إنه ولد بلا « أب » . لزم عن ذلك أن يبحث له عن « أم » .

ولو قيل : إنه « ملك » لسقط القائل بذلك فى عقائد « الميثولوجى » الباطلة التى نهت عنها الشرائع » والشريعة الموسوية أيضا[٧٢].

ولو كان يعبر عن الله بلفظة « أب » لكان العبيد المؤمنون والأعزاء يقال لهم : أبناء الله .

لا جرم أن لكل ملة مثل هذه التعبيرات المجازية ، وبينما كان التعبير عن الله بالأب من هذا القبيل « المجازى » إذ نهض للتفتيش عن الأبوة الحقيقية فحصل الإبهام من تعبير الأب والابن بالأبوة والبنوة المادية .

---

(٧١) وفى القرآن الكريم تقسيم الناس قسمين : حزب الله ، وحزب الشيطان . يقول الله تعالى : ﴿ ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ [المائدة : ٥٦] .
ثم يقول : ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ﴾ [المجادلة : ١٩] .

(٧٢) ميثولوجى : مجموعة الأساطير ، وبخاصة تلك التى تتصل بالآلهة والأبطال الخرافيين عند شعب مّا .

وبسبب ذلك منع استعمال هذه التعبيرات فى الشريعة الإسلامية[٧٣].

وإلا فإننا نحن – أيضا – نسمى « الكعبة المكرمة » بيت الله . يعنى – البيت المحترم – والمشرف عند الله ، وذلك لا يفيد أن لله بيتا حقيقيا ، فإن الحق – سبحانه وتعالى – منزه عن المكان[٧٤].

هل الصلب حقيقة ؟

قالت الراهبة :

أتعتقدون بانتقال حضرة سيدنا عيسى إلى السماء بعد صَلْبه ؟

---

(٧٣) جاء فى التفسير الوسيط : ترددت كلمة « ابناء الله » فى أسفار العهد القديم . وليس لأحد عنده من فضل أو مزية على غيره إلا بالإيمان والعمل والصالح .. كما أشار بذلك القرآن فى الآية رقم ١٨ من سورة المائدة فى مجال الرد عليهم حينما قالوا للنبى ﷺ : « نحن أبناء الله وأحباؤه .. فأنزل الله فيهم : ﴿ **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناؤا الله وأحباؤه ...** ﴾ الخ الآية .

ولقد ضاهت النصارى بقولهم فى « عيسى » قول اليهود قبلهم فى « عُزير » ﴿ **قاتلهم الله أنى يؤفكون ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتمّ نوره ولو كره الكافرون** ﴾ .

[التوبة : ٣٠ – ٣٢]

(٧٤) المضاف إلى الله نوعان : **أعيان قائمة بنفسها** كبيت الله ، وناقة الله ، وعبد الله ، وروح الله ورسوله ، فهذه إضافتها إلى الله تقتضى الاختصاص والتشريف ، وهى من جملة المخلوقات لله . الثانى : **صفات لا تقوم بنفسها** كعلم الله وحياته وقدرته وعزته وسمعه وبصره وإرادته وكلامه ويده ووجهه ، فهذه إذا وردت مضافة إليه فهى إضافة صفة إلى موصوف بها . وكذلك ما أخبر أنه منه ، فإن كان أعيانا كروح منه قال تعالى : ﴿ **وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه** ﴾ [الجاثية : ١٣] فهذه منه خلقا وتقديرا . وإن كان ذلك أوصافاً كقوله : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله** ﴾ دل على أن ذلك من صفاته لامتناع قيام الصفة بنفسها ، ولهذا لما اهتدى السلف لهذا الفرق الذى يحصل به الفرقان بين الحق والباطل هُدوا إلى صراط مستقيم .

قلت : نعتقد بصعوده إلى السماء ، ولا نعتقد بصلبه[٧٥].

قالت : يا عجبا ! ما هذا القول ؟!

إن اليهود يقولون : نحن صلبناه ، ونحن نقول : نعم . إنهم صلبوه !

أليس مما يوجب النظر أن دينا يأتى بعد ستمائة سنة يكذب الطرفين ؟!

قلت : ليس فى المسألة عند المسيحيين من رواية وصلت إليهم بلا انقطاع من نبع يتعلق بهم توًّا ، وإنما أخذوا الشيء الذى سمعوه من اليهود فقبلوه ، فالإسلامية – والحالة هذه – لا تجرح رواية النصارى على الإطلاق ، وإنما هى تجرح رواية اليهود ، لأنه من المعلوم أن اليهود أخذوا سيدنا عيسى – عليه السلام – ليلاً إلى أحد البيوت ، وإذْ ذاك تفرق الحواريون بأجمعهم !! على أنه وإن كان أحدهم قد ذهب من خلفه حالة كونه كان بعيدا عنه ، إلا أن هذا أيضا قد ذهب بحال سبيله حينما أدخلوا حضرة سيدنا عيسى – عليه السلام – إلى

---

(٧٥) لقد كذّب القرآن دعوى اليهود قتله وصلبه فقال : ﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم** ﴾ [النساء/١٥٧]

ولقد أمسك القرآن عن ذكر اسم من ألقى الله عليه شبه عيسى – عليه السلام – فقتل مكانه ، واكتفى بنفى قتلهم وصلبهم لعيسى وأنه شُبّه لهم .

ومن يتتبع الروايات التى ذكرت فى الأناجيل يجد أن أمارات القطع بأنه هو أو غيره لم تكن متوفرة لديهم ، فلذلك شكوا واختلفت أقوالهم !

ويعلق التفسير الوسيط بقوله : ومن عجب أن تنص أناجيل المسيحيين على أن المسيح أخبر حوارييه أنهم جميعا يشكون فيه ليلة الصلب فكيف ساغ لهم القطع بقتله وصلبه .

فقد جاء فى إنجيل متى إصحاح ٢٦ فقرة ٣١ . وإنجيل مرقص – إصحاح ١٤ فقرة ٢٧ – أن السيد المسيح قال لحوارييه : «**كلكم يشكون فيَّ هذه الليلة**» يقصد ليلة التربص لقتله . وهذا مصدق لما جاء فى القرآن من شكهم فيه .

ذلك البيت ولم يطلع أحد على ما حصل فى الداخل . وقد كان فى ذلك اليوم أشخاص آخرون حكم عليهم بالإعدام ، فمن اشتداد الظلمة ظن أنهم أخذوا سيدنا عيسى – عليه السلام – والحال أنهم صلبوا شخصاً شبه به . والحق – سبحانه – رفع سيدنا عيسى – عليه السلام – إلى السماء فهذا هو الحق الذى بلغنا .

وحينئذ تمت الصلاة فتقدمت المرطبات – على جارى العادة – وأخذنا فى مداولة أحاديث الوداد ، وبعض النوادر .

ثم إن « المدام » أوضحت لنا إذ ذاك أنها قد حصلت على المعلومات اللازمة من سياحتها ، واطلعت على أشياء كثيرة كانت تجهلها من قبل ! فشكرت لنا كل الشكر ، وحمدت ما رأته منا من الإكرام لها والعناية بها . واشتركت الراهبة بالثناء أيضا مصرحة بامتنانها وسرورها مما رأته ووقفت عليه ، وكلتاهما ودعتانا أحسن وداع ، وذهبتا ممتنتين شاكرتين .

المحاورة الثانية

مع السّائحة الإنجليزية التى جمعت
بين العلم والفلسفة

حول :

أولا : المحاورة « أ » حول :

- تعدد الزوجات فى الإسلام ، وموقف المسلمات منه!
- الحجاب والتستر والاختلاط ومصاحبة المرأة للرجل!

ثانيا : المحاورة « ب » حول :

- علم الهيئة .
- التأمل فى ملكوت السموات والأرض .
- وحدانية الله ، ورأى السائحة الإنجليزية !
- خلو الإنجيل من نص صريح يتعلق بالتثليث .
- نماذج للتناقضات فى التوراة .
- رأى الفيلسوفة فى القرآن وفى دين الإسلام .
- السر الذى كان مجهولا لدى الفيلسوفة !
- عود على بدء .

المحاورة الثانية

مع الفيلسوفة الإنجليزية

أولا : المحاورة « أ » :

بعد أسبوع واحد من اجتماعنا بتَيْنك[٧٦] الضيفتين – كما فصّلنا ذلك فى المحاورة الأولى – أخذت كتابا[٧٧] ولما فضضت خَتْمه، وجدت ضمنه « رُقعة زيارة »[٧٨] وكتابا آخر مظروفا[٧٩]. وقد خُطّ على « رقعة الزيارة » كلماتٌ معناها : أن مُرسلتها تَوَدّ أن تعلم ما إذا كان يمكننا قبولها فى منزلنا أم لا ؟

وإذا أمكن ففى أى وقت يتسنى لها أن تزورنا ؟

وبما أنى لم أعرف اسم المرسلة المُومَى[٨٠] إليها فَفَضَضْتُ ختام الكتاب الثانى فعرفت توقيع صاحبته، وهى سيدة من مُعْتَبَرى السُّيَّاح كانت جاءت منذ السنة الماضية إلى « دار السعادة » واجتمعت بها فى منزلنا، وقد ذكرت بكتابها اجتماعنا الماضى ثم قالت :

إن السيدة « روجينيه » إحدى حبيباتها العزيزات متهيئة للذهاب بصحبة زوجها لمشاهدة « دار السعادة » وأنها قد طلبت منها

---

(٧٦) يشير النحويون إلى المفرد بكلمة : ذا وإلى المفردة بكلمة ذى وتى والمثنى : ذان وتان رفعا، وذين وتين نصبا وجرا. وقد تدخل عليها « ها » التى للتنبيه فتقول : هذان، وهاتان، وهذين وهاتين.

(٧٧) أى مكتوبا ورسالة.

(٧٨) بطاقة استطلاع رأى وطلب الموافقة على الزيارة.

(٧٩) رسالة داخل مظروف.

(٨٠) المومى : المشار إليها.

الإيضاحات اللازمة عن المَحالّ الحَرِيّة[٨١] بالنظر ، والفُرجة فيها من حيث إنها كانت قد ذهبت قبلاً إليها وأنها كثيرة الشوق والميل للاجتماع مع العائلات التركية الشهيرة ، وسألَتْها عن الواسطة التى تمكنُها من الفوز بهذه الأمنية ، وأن هذه السيدة من « العالمات الفاضلات » اللاتى يسّر الاجتماع بهن !

ولأجل ذلك أوصتها أن تذهب إلى منزلنا ، وأنها على أمل تامّ من أنها ستلاقى فيه ما تبتغيه .

ثم زادت على ذلك بأن السيدة «روجينيه» – وإن كانت انجليزية المحْتِد[٨٢] والنشأة إلا أنها عارفة بعدة لغات – وهى تعرف اللغة الفرنسية كما تعرف لغتها ، وأنه لا يمكن أن تكون هناك صعوبة فى التكلم معها .

واختتمت كتابها بقولها : إن السيدة « روجينيه » الموَمى إليها لحَرِيّة بأن تُدعى « فيلسوفة »[٨٣] وأنه ليس فى هذا الوصف مغالاة على الإطلاق .

وحيث إن الشخص الذى أحضر الخطاب كان لا يزال فى انتظار الجواب – بَلّغْتُه أن يخبر السيدة الموَمى إليها أن تتفضل لزيارتنا فى اليوم التالى ، وأن تؤانسنا بتناول طعام الإفطار معنا .

وفى اليوم المذكور وفد على منزلنا عدد من ذوى قربانا للإفطار معنا ؛ وذلك جريا على العادة المألوفة فى « شهر رمضان » من التزاور الذى يحصل بين الأهل والأقرباء .

---

(٨١) الحَرِيّة بالنظر : الجديرة بالمشاهدة ، والتى تستحق أن تكون فى برنامج السياحة .
(٨٢) الأصل والطبع .
(٨٣) الفيلسوفة : المحبة للحكمة والباحثة عن الحقيقة .

وبينما كنا جالسين فى القاعة قبيل الساعة الحادية عشرة من النهار إذ دخلت علينا جارية فقالت : أُنْبِئتُ من الخارج أن السيدة قد أتت ، وأنها على أُهبة الدخول إلى فناء الدار !

وما كادت تتم عبارتها حتى نهضتُ مسرعةً لاستقبال الضيفة المومَى إليها ، وقد كنت أظن مما اقتبسته من رواية صاحبة الكتاب أننى سأُقابل « فيلسوفة » طاعنة فى السن فإذا بى أرى غيداء[٨٤] حسناء لا تتجاوز الثلاثين من العمر !

وكانت هذه السيدة مرتدية لباسا فى غاية الحسن ! ومُلقيةً على كتفها كسوةً شتوية موافقة لآخر زىّ ، ولائقة بأعظم الزيارات .

وعند مقابلتى إياها رفعت قبعتها عن رأسها فتجلى للعيان شعرها المعقود بين أمهر المواشط[٨٥]، وكان مجموعا فى « أم رأسها » بطريقة تستجلب الأنظار !

لا جرم أن كتابة صاحبة الكتاب السابق الإيماء إليها كانت تحملنى على الاعتقاد بأن « الفيلسوفة » التى سأراها فى « دار السعادة » يجب أن تكون من النساء المُسنات اللاتى لا تهمهن الزينة ، ولا يعتنين بالأزياء[٨٦].

ولكنى بعد أن تمكنت من معرفة السيدة روجينيه .. علمت أنها ليست من الجاهلات اللواتى بيضت المطاحن شعورهن[٨٧] وإنما هى

(٨٤) الغيداء : المتثنية ليناً . كما فى القاموس المحيط .

(٨٥) جمع ماشطة ، وهى التى تتولى تصفيف الشعر وتحسن المشط وحرفتها المِشاطة بكسر ميم .

(٨٦) إن لفت أنظار النساء المسلمات لصرفهن عن الآداب الإسلامية والعادات العربية إلى اتباع تقليد النصارى فى أخلاقهم وزيهم وعاداتهم - مبدأ لقطع الرابطة الإسلامية والأخلاق الدينية ، وتقويض لدعائم الشرف والحياء والستر ، وفتح لباب السفاح والفساد !

(٨٧) شيبتهن أحداث الدهر . والمطاحن جمع مَطْحن : آلة الطحن .

قد تلقت العلوم والفنون منذ سن الصبا عن والدها الذى يُعَدّ من عشاق العلم والمعارف ، وأنها ما فتئت الآن صارفة قُصَارى جهدها وجِدّها إلى اقتباس الآداب ، فما وصلت إلى الثلاثين من عمرها حتى كانت قد صرفت معظمه فى سبيل التحصيل ، وبلغت شأوا رفيعاً فى التهذيب ، وثبت عندى مما رأيته فيها من الميل والاجتهاد إلى الوقوف والاطلاع على جميع الأشياء : أنها تعتقد بنفسها أنها لم تصل إلى الدرجة المطلوبة من العلم والمعرفة وأن ما تعرفه دون الطفيف(٨٨)، وأن « الطواحين » لن تبيضَ شعَرها الذى لا يزالُ غيرَ مُبْيَضّ ، ولا يمكن أن تصل أوقاتُها بالبطالة ، وأنها ستصرف بقية عمرها فى طلب المعارف ، وتحصيل العلوم والفنون كما صرفته إلى هذا الوقت ، فكانت حَرِيّة بأن يطلق عليها « الفاضلة »(٨٩) !

وأما إتقانها للزينة ، وتغاليها فى الكسوة ، وترتيب شعرها ؛ فلم يكن إلا لأجل المحافظة على شرف اسمها ، وشرف أسرتها بين قريناتها ، ولكيلا يمزق عرضها الناقدون ، وينسبوا إليها الخسة والبخل ! مع ما هى عليه من الثروة العظيمة(٩٠)!

والغريب أن هذه السيدة ليست من النساء اللاتى يحملهن جمالهن على الكبر والغرور ؛ فإنها كانت كأنها لا تعرف هذا الجمال ، ولا تنظر إليه ؛ بل لا تهتم به ، وإنما كانت تنظر إلى جمال طبيعتها وأخلاقها(٩١)!

---

(٨٨) وهذا شأن العلماء فمن اعتقد أنه قد علم فقد جهل .

(٨٩) الفاضلة المتصفة بالفضيلة . والفضيلة : الدرجة الرفيعة فى حسن الخلق .

ولاشك أن إسرافها فى الزينة ، وتغاليها فى الكسوة وترتيب شعرها مما يجعل الكاتبة مغالية فى وصفها بالفاضلة . مهما كانت الأسباب فمن عرف نفسه لا يضره ما قال الناس فيه !!

(٩٠) بناء على موازينهم ومعاييرهم الخاطئة . وما بهذا يصان الشرف ؟

(٩١) فالجمال جمال العلم والأدب ، وجمال النفوس أسمى وأحلى .

وأغرب من ذلك أن هاته السيدة الحسناء التى هامت بالعلم ، وتيّمها عشقه ، ولم يكن فى قلبها أدنى فراغ يسع غيره — اقترنت برجل هو فى سن والدها ؛ لأنها قد أخذت بعلمه ، وعشقت فضله .

وكان هذا الزوج العالم واسع الثروة فتمكنت بواسطة ذلك من تحصيل سائر العلوم ، ووقفت على جملة أشياء !

ولما كانت راغبة فى أن تشرك حاسة النظر مع حاسة الإدراك ، وأن تشاهد بأم رأسها ما درسته من الفنون ، وما اطلعت عليه من سائر آداب وآثار الدنيا أخذت تطوف فى كل جهة من العالم بصورة لائقة بمركزها « قصد السياحة ، ومشاهدة آثار الكون وما فيه من العجائب والغرائب[٩٢]! » .

وكانت هذه السيدة تحمل « مِرْوحة » جميلة جدا قد سلمتها مع ردائها إلى الجارية ، وهذه المروحة من المراوح ذات القيمة التى تحملها كبريات السيدات وعُظْمياتهن ، لا لأجل منع الحر وترطيب الهواء ولكن لأجل إظهارها للناس وبيان قيمتها وغلاء سعرها حتى وإن كان الهواء رطبا[٩٣]!

---

(٩٢) وفى الدين الإسلامى أوامر صريحة بالتأمل فى الكون ، والنظر فى السموات والأرض ، ودعوة إلى السير فى الأرض : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ [يوسف : ١٠٩] .

وقوله سبحانه : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها** ﴾ [الحج : ٤٦] .

وقوله : ﴿ **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾ [العنكبوت : ٢٠] .

إلى غير ذلك من الآيات .

(٩٣) خضوعا للتقاليد المرعية عندهم ورعاية لها ليس إلا . ولكننا نهينا عن التفاخر والمرءاة والتعالى فالناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح . وإن كان من المقرر أنه ليس من الكبر أن يكون الرجل ثوبه نظيفا ونعله نظيفا وأن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، فى إطار البساطة وعدم المغالاة !

وليس من حاجة إلى القول بأن هذه السيدة لم تشأ استخدام « المِرْوحة » فلم تبقها معها عند دخول القاعة بل تركتها مع الجارية فى الخارج عند دخول القاعة .

وقد دل هذا العمل دلالة واضحة على أنها لم تحمل هذه المروحة بقصد « الفخفخة » وإنما قصدت المحافظة على شأنها وشهرتها ليس إلا !!

.. وبالجملة فإن هذه الرِّقّة المجسمة التى لم تكن تعرف ما هو الغرور ، ولم تختبر العظمة والكبر كانت بادية عليها آثار التواضع ، ومخايل أنس الجانب .

وكانت تتكلم بصوت لطيف يقع فى أعماق القلوب ، ويدخل إلى الآذان بلا استئذان !

أما ألبستها فإنها وإن كانت كما فصلت قبلا حسنة ومن أحدث طراز غير أنها كانت فى غاية البساطة ، ولم تكن مزينة بالأزهار ، وما ماثل ذلك من أنواع « البهرجة » ، وكانت تشير إلى نبالتها وكمالها بعد أن نزعت رداءها وقبعتها(٩٤).

وكانت قد أرسلت نظرة كأنما أحسنت بافتقاد شيء ما فقلت لها : أيتها السيدة إن « جمعيتنا » لما كانت خِلْوا من الرجال فإنى أقدمُ لك « ساعدى » فعساك أن تتفضلى بقبوله !

قالت : أشكر لك مكارمَ أخلاقك ، ألستُ متشرفة بالسيدة التى أثنت عليها صديقتى مدام « جرجوار » ؟!

قلت : إن العناية بالضيف فرض واجب القضاء علىّ(٩٥) فلا حاجة لما تفضلت به من عبارات الشكر والشرف الذى أشرت إليه ؛

(٩٤) حيث يبدو على محياها كرم أصلها .

(٩٥) تلبية لقول الرسول ﷺ : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه** »[متفق عليه] .

إن هو إلا إحسان أولتنيه عقيلة « جرجوار » .. عَلَى غير استحقاق !

وبعد أن أخذت السيدة بذراعها إلى القاعة عرّفتها بصاحبة المنزل ، وأفراد العائلة ، وسائر من هناك من الأقرباء والأصهار كل منهن على حدة ، وترجمت لصاحبة الدار وأفراد العائلة التحيات التى كلفتها بها عقيلة « جرجوار » المومَى إليها ، وبلغتها شكر كل واحدة منهن .

القهوة التركية :

وحينئذ قدمت للسيدة القهوة ، فشربت « فنجالا » كاملا وقالت : إنها لم تكن تألف شرب القهوة ، ولكنها لم تذق إلى الآن مثلها ؛ ولذلك شربت « الفنجال » بتمامه !

أما أنا فقد بينتُ لها أن للترك طريقة مخصوصة لإعداد القهوة تختلف عن طريقة الإفرنج ، وعرفتها كيفية إعدادها ، ثم أنبأتها أن قهوة « البن » على عكس « التبغ » فبمقدار تطوافها فى البحر يفسد طعمها ، أما هذه القهوة فهى من البن اليمنى قد أُتى بها إلى الشام بواسطة عُرْبان غزة ، وجلبت منها إلينا ؛ فلم تمر على البحر إلا من بيروت إلى هنا ؛ ولذلك كانت مرجّحَةً على غيرها !

سؤال عمن حضرن الاجتماع :

ثم سألتنى السيدة عما إذا كان فى عزم السيدات الموجودات عندنا أن يبتن فى منزلنا هذه الليلة أم لا ؟! فقلت لها : إن منازل أكثرهن قائمة على الخليج[96] وسيذهبن إليها على ضوء القمر ، وإن

---

(٩٦) يعتبر الجغرافيون ذلك الجزء الذى تقع فيه مدينة « استامبول » تابعا لأوربا من الناحية الجغرافية ، ويفصلها عن آسيا المضيق المشهور « البوسفور » وبحر مرمرة والدردنيل واستامبول كبرى مدن تركيا وأشهرها بآثارها وقصورها وماضيها العريق .

هاته الليلة هى الليلة الرابعة عشرة من الشهر ، وقد اخترنها للإفطار رغبة فى التمتع بلطافة نور القمر وقت تِمِّه !

قالت : إننى على حين كنت راضية بأن أجتمع بعائلة تركية فاجتماعى هذه الليلة اتفاقا بعدة عائلات قد ملأ فؤادى سرورا ؛ فأنا أشكر لهن اختيارهن هاته الليلة للإفطار ، ومجيئهن إلى هذا المنزل حيث أسعدنى الحظ بمرآهن .

فترجمت كلام « المدام » لهن ، ونقلت لها كلامهن الدال على أنهن يشعرن بمثل ما تشعر به من المسرة والامتنان ، ثم قلت لها : إن السيدات قد تولتهن الدهشة من جمالها ورقتها ، وأنهن لن يقنعن ببيان امتنانهن لها ، ولكن يتأسفن لعدم معرفة اللسان(٩٧) لمسامرتها مباشرة .

وجملة القول : أننى بواسطة الترجمة ، ونقل كلام الفريقين بعضهما إلى البعض الآخر مكّنت الألفة والصحبة بين الضيفة الكريمة ، وبين السيدات .

حرص الزائرة على تعلم التركية :

ومع أنه لم يمر على مجىء السيدة «روجينيه» إلى « دار السعادة » أكثر من أسبوع واحد إلا أنها قد خصصت من وقتها ساعة لتعلُّم اللغة التركية ؛ فحفظت منها جملة مفردات(٩٨).

وبينما كنت أترجم لها كلام السيدات المومأ إليهن كانت فى بعض الأحيان تجيب بلفظة « نعم » أو « لا » . إشارة إلى أنها كانت تفهم بعض الكلمات ، وكنت أترجم لها ما خفى عنها من سائر العبارات .

---

(٩٧) الفرنسية أو الانجليزية .

(٩٨) إن من تعلم لغة قوم أمن مكرهم ، فهل يكون ذلك درساً ، بدلا من إضاعة الوقت فيما لا طائل وراءه ؟!

وكانت المفردات التى حفظتها فى خلال الأسبوع مُسَطَّرة فى حافظتها ، وهى كثيرة جدا إلى حد يوجب التعجب .

وقد أنبأتنى أنها عند رجوعها إلى بلادها لن تُهمل تعلّم التركية ، وإنما ستستمر على الدرس والمطالعة .

وكانت تلفظ المفردات التى تعلمتها لفظا حسنا مما يثبت لها الاستعداد الطبيعى ، ومع أنها كانت انجليزية المحتد والمولد إلا أنها كانت تتكلم الفَرَنسية كإحدى الباريسيات .

نظرات تأملية :

وكانت منذ دخولها إلى القاعة تُمعن النظر أيّما إمعان فى جميع من كن هناك من السيدات متنقلة من الواحدة إلى الأخرى !

على أنها لم تكن تنظر إليهن بعين البَلْهاء الحمقاء ، وإنما كانت تُلقى عليهن نظرة التدقيق والإمعان .

أما أنا فقد حملت ذلك منها على رغبة التأمل بالنسبة للسيدات التركيات وطريقة زينتهن .

بحث فى وجوه الضرائر ! :

■ وبعد مدة انقطعت عن الكلام توّاً وضاعفت تدقيقها وإمعانها لكل من الخواتين[99] على حدة ، ثم ما عتمت أن ظهرت على وجهها آثار التفكر كما يحصل فى الغالب لكل إنسان يحاول الحصول على شىء يراه ممتنعا عليه ، وقرنت حاجبيها قليلا ، فباحت شفتاها بما فى ضميرها ، والتفتت إلىّ قائلة :

لقد بذلت جهدى فى هذه الفترة على أمل أن أتمكن من كشف شىء كنت أحاول الحصول عليه ، فلم أوفق إليه ، وذهب ذلك التفكر

(٩٩) جمع خاتون كلمة أعجمية تطلق على المرأة الشريفة كما جاء فى القاموس المحيط .

أدراجاً[١٠٠]؛ فإنى ألجا إلى مروءتك بإزالة ما حصل لى من اليأس على أثر إخفاق مسعاىَ .

وعساك أن توفقى إلى إيضاح يكون لى منه ما أرجوه من السَّلْوى .

فقلت : مُرِى أيتها السيدة ..

قالت :

مَنْ مِن هؤلاء السيدات الموجودات فى القاعة ضرّة[١٠١] للأخرى ؟

قلت :

– عفوا أيتها « المدام » أتسمحين لى قبل أن آتيك ببيان ما أمرت به أن أسألك سؤالا واحدا ؟!

قالت : تفضلى أيتها السيدة :

قلت : على أية صورة تدعين كشف المسألة ؟

قالت : بنظر أن كلا منهما ضرة للأخرى !

فلقد مرّ علىّ هنا نصف ساعة تحريت بها عمن تنظر إلى الثانية منهن بعين الخصومة والبغضاء ، ولكنى لم أر إلا أن كل واحدة منهن تنظر إلى الأخرى بعين الحب والتودّد !!

لا جرمَ أن فُقدان الضرائر فى مثل هاته الجمعية الكبيرة كان يحملنى على التفكر بأن ذلك ممتنع الإمكان فى « تركيا » ؛ لعلمى أن

---

(١٠٠) تبدد فى غير شىء ودون طائل .
(١٠١) الزوجتان كل منهما ضَرَّة للأخرى . وهن ضرائر .

عدم وجود الضرائر نادر بدرجة يشير بها الزوج إلى زوجته بالبنان[١٠٢]، أما الآن فقد تأسفت إذ علمت أن نظرى الذى كنت أظنه قد خدعنى !

قلت : لم يخطىء نظرك أيتها السيدة ، وإنما أنت على مثل ما علمت ! ، إلا أن الجهة الثانية معاكسة لما تعلمين على الخط المستقيم ؛ لأن « وجود الضرائر » هو النادر إلى درجة يشار إليها بالأصابع !!

قالت : عفوا أيتها السيدة ، فما هذا القول ؟

قلت : لا أقول إلا الحقيقة أيتها السيدة .

قالت : فإذن لا يوجد ضرائر بين السيدات الموجودات هنا فى الوقت الحاضر ؟!

قلت : كما أنه لا يوجد بينهن ضرائر كذلك لا ضرة لإحداهن مع الأخرى !

إبداء رغبتها فى رؤية الضرائر !!

قالت : إننى - بحسب الأنوثة - لئن كنت ممتنة بسبب محبتى وميلى إلى السيدات بنات جنسى من ندرة تلك الحال إلا أنه من حيث وجود الضرائر ، فلو تمكنت من مشاهدة مثل هؤلاء لأصبحت فى غاية الامتنان !

قلت : لقد نطقت بالصواب ، أيتها السيدة المحترمة !

إن النساء من أى مِلّةٍ كُنَّ فهن على اتفاق بهذا الشأن[١٠٣].

---

(١٠٢) كناية عن القِلة .

(١٠٣) وتلك طبيعة المرأة تحب أن تستأثر بزوجها ، ولا يزاحمها غيرها فى حبه وحياته .

قالت : يا عجبا ! يُفْهَمُ من ذلك أنه على حين أنك تركية فأنت بهذا الخصوص من رأيى !

قلت : إننى إلى الآن لم أفهم ماهية فكرك ، أيتها السيدة ، فإننى لست منفردة بالتأثر على السيدات اللاتى يتزوج رجالهن بغيرهن ! وإنما السيدات التركيات بجملتهن متفقات معك على فكرك(١٠٤)!!

تعدد الزوجات وموقف الزوجات منه :

قالت : أما أنا فقد كنت أسمع أن المرأة التى يقترن زوجها بامرأة غيرها لا تتذمر من فعله ، وإنما تحسب ذلك أمرا إلٰهيًّا فتمتثله بالطاعة والإذعان ! صابرة على حكم الزمن ! قلت : لو كان ذلك أمراً إلٰهيًّا - على الإطلاق - لوجب على كل رجل أن يقترن بأكثر من زوجة واحدة !!

إن الله - سبحانه وتعالى لم يأمر الرجال أنْ يقترنوا - حالا - بزوجات على زوجاتهم ، وإنما سمح وأجاز ذلك عند مسيس الحاجة !

---

(١٠٤) مادم الأمر يجرى فى إطار المبادىء الإسلامية والقواعد الشرعية والأحكام الدينية فلا نملك إلا الرضا والقبول . ولا مجال للعواطف وتأثرها !!

والعجيب الغريب أن الذين يحاولون تشويه جمال الإسلام بذكر التعدد على أنَّهُ وصمة عار ينسون آفات المخادنة ومفاسدها التى تنشأ من خطر عدم التعدد وقَسْر الناس على الزوجة الواحدة . لقد أعلنها الغرب صريحة ، وكشفها للناس ، فرأوا كيف تجمد العلاقة الشرعية ، وتنطلق الغرائز على سجاياها . وكيف يتخذ الرجل من الخليلات أضعاف ما يسمح به الإسلام من الزوجات ، وكيف يضيع النسل غير الشرعى وينشأ فى أحضان الحرمان والإهمال ومنابت الرذيلة والانحراف . وكفاهم ما لقوه من عقاب تجلى فى مرض الإيدز !

إن التعدد رخصة محوطة بضمانات ثقيلة ، وعلى المسلم أن يراعى هذه الضمانات قبل أن ينتفع بالرخصة ، وأمام المنطق الواضح يكون التعدد ضرورة لا يلجأ إليها إلا المضطر ، ومع مراعاة الضمانات ، ولا ضَيْر فى ذلك ، بل هو المعقول .

فلو كان هناك « أمر إلهىّ » – كما تقولين – فهل فى وقت[١٠٥] الموت يطلب فقط أمر الله ؟!

لا جرم أنك تعتقدين مثلنا أن « أمر الموت » بيد الله ، ولكن هل أتى عليك زمن طلبت به هذا الأمر ؟!

قالت : لا أنكر عليك الحق فى مثل هذا الوجه ، ولكننى سمعت أنّ الله فى الشريعة الإسلامية أمر الرجال أن يقترنوا بأربع زوجات !

قلت : إن هذا الأمر الذى تقولين عنه إنما هو بمثابة : **إذن أجازه الله وأحله بحسب الظروف وبشرط العدل بين الزوجات** .

ولقد كان تعدد الزوجات جائزا فى الشرائع السالفة بل لم يكن له حد معلوم أيضا[١٠٦].

---

(١٠٥) أى أنه على افتراض وجود أمر بهذا فمتى يكون تنفيذه ؟ وهل ينتظر بتنفيذه ماشاء الله إلى حلول الأجل وذلك علمه عند الله ؟!

إن وجود أمر بالزواج من أربع يستدعى تنفيذه على الفور ، والمسارعة به وهذا لا وجود له فى الدين عندنا . والكثيرون يكتفون بواحدة !

(١٠٦) يقول الأستاذ العقاد فى كتابه عن المرأة :

جاء الإسلام ، فلم ينشىء تعدد الزوجات ، ولم يوجبه ، ولم يستحسنه ، ولكنه أباحه ، وفضل عليه الاكتفاء بالزوجة الواحدة ، وفضله على تعطيل الزواج فى مقصده الطبيعى والشرعى بقبول العقم ، والتعرض للغواية وفرض العزوبة – وهى تجمع بين العقم والعزوبة معاً – على كثير من النساء عند اختلاف النسبة العددية بين الجنسين .

ونزيد على ذلك أنه حفظ للمرأة حريتها التى يتشدق بها نقاد الشريعة الإسلامية فى أمر الزواج ؛ لأن إباحة تعدد الزوجات لا يحرم المرأة حريتها ، ولا يكرهها على قبول من لا ترتضيه زوجا لها .

ولكن تحريم التعدد يكرهها على حالة واحدة لا تملك غيرها حين تلجئها الضرورة إلى الاختيار بين الزواج بصاحب زوجة ، وبين عزوبة لا يعولها فيها أحد ، وقد يعجزها أن تعول نفسها .

واشترط القرآن العدل بين الزوجات فى حالة التعدد على ألا يزيدعددهن عن أربع ، ثم ذكر الرجال بصعوبة العدل عسى أن يتريثوا قبل الإقدام على الحرج .

فالشريعة الإسلامية نهت عن أكثر من أربع ، وهذا مقيد بقيود وشروط صعبة جدا بحيث إن فى إجرائه على صورة موافقة للشرع إشكالا لا مزيد عليه ؛ لأن الرجل الذى يقترن بزوجات متعددات يجبر أن يُفْرِزَ لكل واحدة منهن منزلا على حِدَة ، وأن تكون نقوش غرفه مماثلة بعضها للبعض الآخر ، فضلا عن الأثاث والرياش ، وألا يكون ثمت بَوْن[١٠٧] بين ألبستهن وزينتهن ، وفى مثل ذلك لا أزيدك علما بما هناك من الصعوبة المتعسّر تذليلها[١٠٨].

ولما كان من واجبات الرجل عندنا أن يهتم بإدارة شئون زوجته وطعامها وكسوتها ، وسائر حاجاتها كان تعدد الزوجات نادرا بالنظر إلى تعذر القيام بضروريات واحدة فضلا عن كثيرات فى عصرنا الحاضر !

وزيادة على ذلك فإن المرأة التى لا ترى من زوجها عناية بشئونها وإدارتها يحق لها أن تذهب إلى المحكمة فتشكو ظلامتها ، والمحكمة تأمر الرجل أن ينفق على زوجته .

كما أن الزوج يصبح حينئذ مجبرا على امتثال هذه الأوامر !

قالت : إن الرجل المتمول يقتدر على إدارة أربع زوجات ، فلا يمنعه ذلك من تعددهن !

---

(١٠٧) بَوْن : فارق ؛ وذلك لوجوب العدل بيْن الزوجات ، وكان رسول الله ﷺ يعدل بينهن فى العطاء والبيتوتة فى الليالى ، ويقول : « **اللهم هذا جهدى فيما أملك ، ولا طاقة لى فيما تملك ولا أملك** » يعنى الحب . رواه أصحاب السنن وابن حبان من حديث عائشة .

(١٠٨) كما قال تعالى : ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم** ﴾ [النساء : ١١٩] .

وقال : ﴿ **فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ...** ﴾ [النساء : ٣] .

قلت : نعم .. لا يمنعه من ذلك مانع[109]. ولكن مشروط عليه أن يساوى بين كل من زوجاته ، وألا يميز إحداهن عن الأخرى بالعطايا والهدايا .

ولا يُظهر لواحدة منهن حُبًّا يزيد عن حبه للأخرى ، فإذا خاف ألا يعدل بينهن فيجب عليه شرعا الاكتفاء بواحدة .

قالت : يا عجبا ! إن المشاكل كثيرة .. ألم يكن أولى من التصَعّب ووضع هذه المشاكل والعقبات منع هذا الأمر ؟

قلت يأيتها السيدة ، فإذا كانت الزوجة عقيما ، وكان الزوج راغبا فى الأبناء .. أو كانت المرأة مريضة والزوج يطلب زوجة ؛ أفلا يُسَاعَد بزوجة أخرى ؟!!

حوار حول الطلاق !

قالت : ألا يوجد طلاق ؟ فإنه يطلقها ، ويتزوج غيرها ، ويجتمع بزوجة واحدة[110]!!

(١٠٩) قد ينشأ المانع لتعدد الزوجات فى حالتى الغنى والفقر على السواء ؛ فالغنى يستطيع أن ينفق على بيوت كثيرة ، ولكنه لا يستطيع أن يجد غنيا مثله يعطيه بنته ، ليجمع بينها وبين ضرة تنازعها ، ولو اعتزلتها فى معيشة أخرى ، وقد يشق عليه أن ينفق على الزوجات الغنيات بما تتطلبه هذه النفقة من السعة والإسراف .

وإذا وجد النساء الفقيرات فلعلها حالة لا تحسب إذْ ذاك من أحوال الاضطرار بالنسبة لمن يقبلن عليها من الزوجات .

والفقير قد يحتاج إلى كثرة النساء والأبناء لمعاونته على العمل – ولا سيما العمل الزراعى – ولكنه يهاب العالة ويحجم عما يجهده من تحصيل النفقة والمأوى .

(١١٠) إن السماح بتعدد الزوجات فى هذه المشكلة البيتية حل مقبول أسلم وأكرم من نبذ المرأة المريضة ، ومن إكراه الرجل على العُقْم والمشقة ، وليس من موانع التشريع فى أمثال هذه المشكلات أن تكون فيه غضاضة على المرأة التى يبنى الرجل بزوجة أخرى ، مع بقائها فى عصمته ، فإن الغضاضة لاحقة بها فى الطلاق ، وليست الغضاضة التى تصيب الرجل المقسور على العقم واحتمال تكاليف الخدمة البيتية بالأمر الذى يسهو عنه التشريع .

قلت : إننا نصرف النظر – مراعاة لخاطرك – عما تلاقيه المرأة العقيم من المحنة والمشقة إذا لم تتمكن من الحصول على زوج آخر ، ولكن كيف نسمح بطرح الزوجة المريضة فى قارعة الطريق ؟!

قالت : إننى أوافق على هذا القول بالنظر إلى كونه صوابا فقط .

ولكن ماذا تقولين عن زوج يتزوج على زوجته مع أن له ولد منها ، ومع أن زوجته حسناء ومتمتعة بأحسن صحة ؟!

قلت : تعلمين يا سيدة .. أن الحَمَامَ يكتفى بأنثى واحدة ، على أن الديك يتسلط على عدة دجاجات .. أليس الإنسان نوعا من أنواع الحيوان ؟!

قالت : أليس التمثيل بالحمام أقرب إلى الملاءمة والصواب ؟!

قلت : لا جرمَ أن ذلك مُنْتهى الحكمة والحق .. والأكثرية على هذا المذهب(١١١)، إلا أن الشريعة اللازمة لجمعية مدنية مؤلفة من

---

(١١١) الحق والحكمة يتمثلان فيما شرعه الإسلام ، ويقول الأستاذ العقاد فى كتابه عن المرأة تحت عنوان : « الزواج » .

وشريعة الإسلام فى نظام الزواج شريعة تامّة تحيط بجميع حالاته وهى على أتمها فى الجانب الذى يتناوله أشد النقد من قبل المخالفين للإسلام عامة ، أو المخالفين فيه لنظام الزواج على التخصيص ، ونريد به الجانب **الذى ينص على إباحة تعدد الزوجات** .

فالإسلام لم ينشىء تعدد الزوجات ، ولم يوجبه ، ولم يستحسنه ، ولكنه أباحه فى حالات يشترط فيها العدل والكفاية ؛ ولا تحسب الشريعة الاجتماعية تامة وافية ببيان المباح والمحرم فى جميع الحالات إن لم تعرض لهذا الجانب من جانب الزواج ، ولم تعتبره احتمالا من الاحتمالات التى تحتاج إلى النص عليها بالإباحة أو التحريم .

فليس البحث هنا عن تعدد الزوجات هل هو واجب أو غير واجب ، **وهل هو من العلاقات المثالية ، أو من العلاقات التى تتخلف عن مقام المثل الأعلى فى الأخلاق ، فإن الشرائع لا تفرض للمثل الأعلى الذى يتحقق به الكمال ، ولكنها تفرض لأحوال الضرورة ، كما تفرض لأحوال الاختيار ، ويحسب فيها حساب ما يُقبل على الرضى ، وما يُقْبل على الكُرْه** ولابد فيه من حكم للشريعة تقتضيه عند الحاجة .

ملايين الانفس يجب أن يكون لها أحكام موافقة لأى الأحوال تدفع بها عن ذويها سائر المحذورات ، وتنيلهم ما يبتغون من المسرات والطيّبات ، وإننى لأحْكُم معك أيضا أنه فى سوء استعمال المساعدة الممنوحة فى تعدد الزوجات مَظْلَمة للنساء !

غير أن النساء اللاتى لا يحتملن هذا الظلم والاعتساف – لهن حقوق معلومة على حِدَة تنقذهن من هذا الجور !

فالمنع القطعى فى تعدد الزوجات قد أورث الجمعيات المدنية أضراراً وخسارات شوهدت رأى العَيْن[112]!

ومن جملة ذلك : أن كثيرا من الرجال الأوربيين فى الوقت الحاضر أصبحوا بلا زوجات ، وعدداً غفيرا من النساء بِتْن بلا أزواج ، فاتسع بذلك مجال العادات السيئة وهى كثرة المسيكات[113] والخليلات ، فلو شئنا أن تنقذ النساء من تأثر الضرائر ، أى : من أن يكون لرجل واحد ثنتان أو ثلاث لفُتِحَ خرق أمَرّ وأنكى من الخرقِ الأول ، بمعنى أنه يظهر إذْ ذاك سفالة كثير من الأطفال المعصومين الذين يأتون إلى هذا العالم بصورة غير مشروعة .

ونشأ عن ذلك أكدار لعدد من بنى الإنسان وأورثهم هذا الأمر خجلا يلازمهم طول العمر !

---

(١١٢) يقول الأستاذ العقاد : يكفى أن تدعو إليه الضرورة فى حالة بين ألف حالة ، لتقضى الشريعة بما يتبع فى هذه الحالة ، ولا تتركها غُفلا من النص الصريح .

ومن مخالفة الواقع أن يقال : إن هذه الحالة : لا تعرض للناس فى وقت من الأوقات ، فإن مثلا واحدا من أمثلة كثيرة قد يجعل السماح بتعدد الزوجات أفضل الحلول ، ويجعل كل حل سواه قسوة بالغة ، أو تعطيلا لأشرف الأغراض التى يشرع من أجلها الزواج .

(١١٣) المسيكات : من يمسكهن ابتغاء الشهوة .

على أنه إذا اتفق عندنا أن رجلا كان قليل الوفاء ، واقترن بامرأة ثانية علاوة على زوجته الحسناء الفتاة الصحيحة البنية أمكن لها أن تطلق منه وتقترن بزوج آخر ، كما تريد ، وتجدد سعادة حالها(١١٤)!

ولكن هل فى وسع الأطفال الذين لا علم لهم بأنفسهم وما يصيرون إليه فى مؤتنف(١١٥) الأيام ، وما يتقلب عليهم يوميا من صنوف الضّر الذى تَسْوَدّ به وجوههم أنْ يمتنعوا عن المجىء إلى الدنيا ؟!!

إن المرأة المسلمة قد تحرم شيئا من الحقوق الإنسانية فى أى الأحوال ، على أن أولئكَ المساكين الذين يدعون أولادا طبيعيين محرومون من جميع الحقوق الإنسانية ، فإنهم مهما بذلوا من السعى والإقدام ، ومهما أجهدوا نفوسهم ، ومهما بلغوا من المعرفة والعلم والثروة الواسعة لا يمكن الافتخار بهم ، وإنما يكونون حِطّة لوالديهم ، ويضعون من قدرهم ، ويوجبون لهم الحياء والخجل .

وليس من عائلة تقبل فى تزويج إحدى بناتهم برجل منهم ؛ إذ أنه من حيث إنه لا عائلة له لا يليق به الانتساب إلى عائلة مّا !!

أما البنات ومصيرهن فلا أرى من حاجة للإفاضة بهذا

(١١٤) من الجدير بالذكر أنه قبل الفراق قد أمر الإسلام عند الشقاق ببعث حكمٍ من أهله ، وحكمٍ من أهلها للتوفيق والإصلاح بينهما بالعدل إن أمكن الصلح وقطع النزاع . أو يشيران بالفراق إن ترجح لديهما دوام الشقاق . **كما جعل الإسلام للمرأة مندوحةً فى حَلِّ عُقْدةِ النكاح بطلب الطلاق إن عجزت عن القيام بحق الزوج أو ظنتْ أنها لا تطيق الصبر على معاشرته برد مهره أو ما اتفقا عليه .**

فعن ابن عباس – رضى الله عنه – قال : أتت امرأة ثابت بن قيس النبى ﷺ فقالت : « يا رسول الله ، ثابت بن قيس ما أعتب عليه فى خلق ولا دين ولكنى أكره الكفر فى الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم قال رسول الله ﷺ : « **اقبلِ الحديقة وطلقها تطليقة** » . رواه البخارى .

(١١٥) فى الأيام القادمة .

الموضوع ! لما أن ذلك معلوم لديك ، فإنهن محرومات من أن يحببن ، ويكن محبوبات لأن علاقة (النغولة)[116] منقوشة على جباههن بصورة لا تمحى على الإطلاق ، فما ذنب هؤلاء أيتها السيدة ؟!

قالت : لا جَرَم[117] أن هؤلاء المساكين لم يأتوا إلى الدنيا فى الحالة التى يرغبون ، بل بعد ذلك لا مناص ولا مخرج لهم من هاته الحال وإن كانوا غير راضين عنها !!

قلت : أما المرأة المسلمة فتكون ضَرّة - برضاها - وإذ أبت ذلك ، فتطلق ، لتتزوج بزوج آخر .

والشريعة الإسلامية لكى تمنع مجيء أولاد الزنا إلى الدنيا منعت الزنا قطعياً ، وأجازت للرجال الذين لا يكتفون بزوجة واحدة تعدد الزوجات . ومقابلة لذلك وضعت الطلاق بحيث إن النساء اللاتى لا يرغبن أن يكن ضرائر يمكنهن أن يبحثن عن زوج يرضى بزوجة واحدة[118].

قالت : لقد أصبت فيما رويت من هذه الجهة ؛ فلا أزيد على لفظة الاستحسان شيئا ! ولكن من حيث إننا من نوع النساء يجب أن نندرج فى مراقى الغيرة قليلا ، ونتكلم كلمات لأجل حماية أهل النوع[119]!

---

(١١٦) النغولة : الفساد بسبب الزنا .

(١١٧) حقًا .

(١١٨) سبق التعليق على حق المرأة فى طلب الطلاق عند التضرر أو خوف عدم الصبر وبعد استنفاد كل الوسائل للإصلاح بينهما . ومن المقرر فقها أن للزوجة حق طلب التطليق من زوجها إذا أوقع بها أى إيذاء بالقول أو الفعل على نحو لا يليق بمثلها ولا يستطاع معه دوام العشرة بينهما .

(١١٩) لا تنبنى الشرائع على العواطف والأهواء . وفى شريعة الله ما يكفل تلك الحماية ، والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، والنساء فى رأى الإسلام شقائق الرجال ! وقد يكون للرجل المتزوج قريبة لا يأويها غيره ، ويكون لها نسل لا يرعاه الزوج =

إن الزوج والزوجة هما جسم واحد ، فبينا يجب أن يعيشا بالحب الكائن بينهما دون أن يتخلله شيء من الشبهات إذ نرى الزوجة المسكينة فى كل يوم بل فى كل ساعة تناجى نفسها قائلة : هل إن زوجى يتزوج بامرأة أخرى ؟!

فبحقك أية لذة من حياة الخوف والقلق والاضطراب ؟!

قلت : إذا وجد نساء يفتخرن بمحبة أزواجهن فليس إلا نساء المسلمين أيتها السيدة !!

إن تزوج الزوج على زوجته حالة كونها فى قبضة يده ، أى : حالة كونه لم يتركها إنما يفيد كأنه لم يتزوج ؛ لأن المحافظة على زوجته دليل محبته لها ، ولا يمكن أن يقام أعظم من هذا الدليل على إثبات حب الزوج ووفائه.!!

والرجل – عندنا – لا يكون تحت مِنّة النساء – كما يحصل عندكم – بسبب المهر المعكوس ليتحاشى الزواج ثانية ، بل بعكس

= الغريب عنها ، فمن الحذلقة المرذولة أن يقال : إن الاحسان إليها بالصدقة أكرم لها من كفالتها فى عصمته ، ورضاها فى هذه الحالة أولى بالتقديم من رضى زوجته التى تعميها الأثرة عن كل شعور غير شعورها ! فكلتاهما امرأة ، وكلتاهما إنسان يحق له العطف والحماية من الكدر والشقاء .

وليس بالنادر أن تمر بالأمم أزمات ، يزيد عدد النساء على عدد الرجال كما يحدث فى أعقاب الحروب والثورات ، وقد يحدث فى أعقاب الأوبئة التى تنتقل عدواها فى المجامع العامة ، فلا تتعرض لها المرأة كما يتعرض لها الرجل . وقد يحدث أن تكون زيادة عدد الإناث ظاهرة مطردة فى كثير من الأنواع كما يقول المشتغلون بعلم الأحياء .

فإذا حدث هذا الاختلال فى نسبة التساوى بين الجنسين ، فليس لهذه المشكلة حل أسلم وأكرم من السماح بتعدد الزوجات ، لأن المرأة التى لا تتزوج تعيش عيشة البطالة والفتنة ، أو تكدح فى طلب الرزق بعمل لا يتيسر لجميع النساء ، وتبتلى بالعقم فى الحالتين .

ذلك ، فإن الرجل حين الزواج هو الذى يدفع الدراهم[١٢٠] لتجهيز البيْت .

وهناك قسم من المال يبقى دينا بذمته واجب الأداء وهو المهر المؤجل ، فإذا وقع بينهما طلاق[١٢١] استوفت المرأة دَيْنها من الرجل واضطرته أن ينفق عليها ثلاثة أشهر وعشرة أيام .

بحيث إنها لا تحتمل شيئا من الضيق حتى تتمكن من الحصول على زوج آخر .

قالت : فى الواقع إننا وإن كنا ندفع الأموال إلا أن الرجال راغبون فينا كل الرغبة !!

قلت : إذا انتقلنا إلى البحث بأمر الرغبة نرى الحرمة والرعاية التى تؤدّى للنساء عندنا لا تقل عن مثلها عندكم – وربما كانت على نوعٍ مّا أعظم !

نحن لا نغتر بالظواهر .. ننظر إلى الحقائق فإن النساء فى الإسلام محترمات بمرتبة القرآن ؛ حتى أنه لا يجوز لفرقة عسكرية صغيرة غير

---

(١٢٠) للمرأة على زوجها ثلاثة حقوق فى الإسلام : اثنان منها حقوق مالية ، وهما المهر والنفقة ، والثالث حق معنوى وهو العدل والإحسان فى المعاملة .

ومن مؤكدات ثبوت المهر : الوطء ، والخلوة الصحيحة من الزوج ، وإزالة بكارتها ، أو موت أحد الزوجين .

والغرض من المهر تطييب قلب المرأة ، وإشعارها بحب الرجل لها ، ورغبته فيها ، ولتهيىء نفسها ببعض هذا المال للانتقال إلى بيت الزوجية ، وهو واجب على الرجل دون المرأة لأن له الرئاسة عليها من جهة ، ولأنه الأقدر على الكدح فى الحياة من جهة ثانية ، وحتى يكون الإقدام من جهة الرجل حيث تتجلى رغبته فيها من جهة ثالثة . وحتى يقدر الرجل تكاليف الزواج فلا يفكر فى الطلاق الذى جعله الشارع فى يده إلا مضطرا إليه اضطرارا .. وليكون ذلك داعياً إلى الإقلال من تعدد الزوجات من جهة خاصة .

(١٢١) تترتب على الطلاق تبعات مالية يلزم بها الأزواج ؛ إذ به يحل المؤجل من الصداق ، وتجب النفقة للمطلقة طوال مدة العدة والمتعة لمن تجب لها من المطلقات .

ويضيع على الزوج ما دفعه من المهر ، وما بذله من مال فى سبيل إتمام الزواج .

خليقة بتحقيق الأمن أن تستَصْحب معها : (المصحف والنساء)[١٢٢].

وأما الفرق العسكرية الكبيرة التى تكون سلامتها مأمولة فى الغالب فإنها تستصحب معها المصحف والنساء أيضا !

وبعد أن استمعت السيدة لكلامى أعملت الفكر قليلا ثم التمست منى أن أترجم كلامها والتفتت إلى النساء قائلة لهن إجمالا :

استدراج !!

من حيث يجوز فى الإسلام للرجال متى أرادوا أن يقترنوا بزوجات علاوة على زوجاتهم أفليس عندكن خوف من ذلك !!

فأجابت إحدى السيدات قائلة :

« أوّاه ! إن زوجى يحبنى فلا يمكن أن يتزوج ! » .

وأُجابت الثانية : « فليتزوج ، ليرى أننى لست ممن يرضين فى البقاء عنده ! » .

وقالت الثالثة : « إذا كان لا يحبنى فبعد أن يتزوج لا أخشى من وقوع القحط فى الرجال للحصول على زوج لى »[١٢٣].

---

(١٢٢) خوفا عليهما وصيانة لهما من الوقوع فى يد العدو . فهما موضع الحفظ والصون من الشريعة الإسلامية وما ذلك إلا لما لهما من مكانة ومنزلة لا تدانيها منزلة !

(١٢٣) سبق التعليق على ذلك ونزيد بأن الإسلام كما جعل العصمة بيد الزوج وألزمه الإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان غير مُضَارّ لها إن لم يردها لمانع ؛ لما ميزه الله عليها بالعقل وأوجب عليه لها من القيام بدفع المهر والنفقة عليها وجميع حوائجها المعاشية - فإنه قيد نفوذ حل عقدته لها فى وقت مخصوص وصفة تكون عليها المرأة بحضور شاهدى عدل ونية منه لحلها من ذمته . وقبل الفراق قد أمر عند الشقاق بينهما ببعث حكم من أهله وحكم من أهلها للتوفيق والإصلاح بينهما بالعدل إن أمكن الصلح وقطع النزاع
=

وأجابت سيدة أخرى : « إن لزوجي حقا فى أن يتزوج ، لأننى أنا أكبر منه بثمان سنوات أو تسع سنوات فهو الآن كهل فى الخامسة والأربعين من العمر ، أما أنا ففى الرابعة والخمسين ، وإننى متى كنت معه فى محل واحد لأخجل من أن نمرّ معًا أمام المرآة(١٢٤)!!

أو يشيران بالفراق إن ترجح لديهما دوام الشقاق ، كما جعل للمرأة مندوحة فى حل عقد النكاح بطلب الطلاق إن عجزت عن القيام بحق الزوج أو ظنت ألا تطيق الصبر على معاشرته برد مهره أو ما اتفقا عليه . [تيسير الوحيين لعبد العزيز بن راشد النجدى] .

(١٢٤) من واجبى أن أضع بين يدى كل مسلمة ما تواجه به تلك الأباطيل التى يرددها الغربيون عن التعدد وها هى ذى خلاصة وافية :

أصحيح أن الإسلام جاء ببدعة تعدد الزوجات وهو أمر له مخاطره ؟

وأراك تقولين : الإسلام لم يأت ببدعة تعدد الزوجات ، فذلك مباح فى الشرائع القديمة جميعا .

وإنما الجديد الذى أتى به الإسلام أنه أصلح ما أفسدته الفوضى من هذه الإباحة المطلقة من كل قيد ، وحسب حساب الضرورات التى لا يغفل عنها الشارع الحكيم ، ولهذا جعل التعدد رخصة فى الضرورات التى لا غنى عنه فيها . فالظروف قد تضطر بعض الرجال إلى الزواج بأكثر من واحدة ، ولمواجهة هذه الضرورات من الرجال والنساء أباح التعدد .

ومن تلك الضرورات : أن يحتفظ الرجل بزوجته عقيما أو مريضة ، ولا يريد فراقها ؛ رعاية لامرأة لا يد لها فى العقم أو المرض ، وهى راضية بذلك البقاء مع زوجها .

ومنها أن يتكاثر عدد النساء فى الحروب والفتن مع ما يشاهد من زيادة عدد النساء على عدد الرجال فى كثير من الأوقات .

فإذا رضيت المرأة فى هذه الأحوال أن تتزوج ممن معه زوجة فذلك أكرم لها من الرضا بعلاقة الخليلة ، التى لا حقوق لها على زوجها ، وأكرم لها كثيرا من الرضا بالفاقة أو بذل النفس فى سوق الرذيلة !

ومن حسنات التشريع الإسلامى: أنه فى جميع هذه الضرورات لم ينس الحيطة لاتقاء سوء التصرف فى هذه الرخصة ؛ فإنه اشترط فيه العدل بين الزوجتين ، ونبه الرجال

سؤال خبيث !! .. حول تعدد زوجات النبي ﷺ !!

وبعد أن ترجمت لها هذه الفقرة التزمت السيدة الصمت وبعد تفكر قليل التفتت إلَيّ قائلة :

يقال : إن نبيكم ﷺ كان يحب النساء كثيرا !!

أليس كذلك ؟

قلت :

أجَلْ .. إن نبينا ﷺ تفضل بقوله :

إلى صعوبة العدل بين النساء مع الحرص عليه . ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ [سورة النساء . الآية : ٣] .

واشترط على الرجل القدرة على تكاليف الحياة الزوجية ، والتسوية فى السكن والمصروفات بين الزوجات : ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم من وُجْدِكُم ﴾ [سورة الطلاق . الآية : ٦] .

﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ [سورة البقرة . الآية : ٢٣٣] .

وأوجب الإسلام على الزوج الإحسان إلى زوجته فى المعاملة سواء تم الزواج واستمر أو انقطع بغير رجعة . ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ﴾ [سورة البقرة : ٢٢٩] .

بل يجب عليه ذلك الإحسان فى حالة الطلاق قبل الدخول : ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات، ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً ﴾ [سورة الأحزاب . الآية : ٤٩] .

والأمر كله بيد المرأة فى أمر تعدد الزوجات ؛ لأنها صاحبة الحق فى قبوله أو رفضه ، ولا يجوز إكراهها على قبوله ، إذ لا يصح الزواج إذا بنى على الإكراه !

ولا ضرر على المرأة من تشريع تعدد الزوجات متى كان الرأى فيه لها ولمشيئتها – ترفض ولها الحق فى الرفض – ولعلها تقبل إذا رأته أخف مما لديها من ضرورات .

« حُبّبَ إلى من دنياكم (ثلاث) : الطِّيبُ (أى : الرائحة العطرية) والنساء ، وقرة عيني فى الصلاة »[١٢٥].

قالت : الظاهر أنه لذلك أخذ كثيرا من النساء حتى أن أحد عبيده بعد أن طلق زوجته تزوجها[١٢٦]!!

وقيل إن ذلك سبب اعتراض بعض المعترضين .

---

(١٢٥) جاء فى مختصر المقاصد الحسنة للزرقانى : تحت رقم ٣٥٥ «حبب إلى من دنياكم النساء والطيب . وجعلت قرة عينى فى الصلاة» . صحيح . وزيادة « ثلاث » باطل لا أصل له .

ومن منا لا يحب النساء ، ألَسْن أمهاتِنا ، وأخواتِنا ، وزوجاتنا وبناتنا ؟ ألم يعلمنا الإسلام أنهن شقائق الرجال ؟!

وفى التاريخ أمثلة ناطقة على أنه لم يحترم المرأة أحد ما احترمها محمد ﷺ ، ولم يَسْمُ بها إلى المكان اللائق بها ما سما محمد ﷺ ولكن السؤال وراءه ما وراءه مما يردده المستشرقون وأعداء الإسلام !!

(١٢٦) إنها تشير – كما يشير معظم المستشرقين – إلى السيدة « زينب بنت جحش » ابنة عمته .

لقد زوجها من مولاه ومتَبَنّاه زيد بن حارثة ، فنفرت منه ، وعزّ على زيد أن يروِّضَها على طاعته ، فأذن له النبى ﷺ فى طلاقها ، فتزوجها ﷺ . لأنه المسئول عن زواجها ، وما كان جمالها خفيًّا عليه قبل تزويجها بمولاه ، لأنها كانت بنت عمته يراها من طفولتها ، ولم تفاجئه بروعة لم يعهدها . وما بنى – ﷺ – بواحدة من أمهات المؤمنين لما وصفت به عنده من جمال ونضارة ، وإنما كانت صلة الرحم ، والضَّنّ بها على المهانة هى الباعث الأكبر فى نفسه الشريفة على التفكير فى الزواج بهن ، ومعظمهن كن أرامل مؤيمات فقدن الأزواج أو الأولياء ، وليس من يتقدم لخطبتهن من الأكفاء لهن إن لم يفكر فيهن رسول الله ﷺ .

ويقول الأستاذ العقاد بعد أن بين الظروف المحيطة بكل زوجة من زوجاته ﷺ : « وهذا هو « الحريم المشهور » فى أباطيل المستشرقين وأشباه المبشرين ، وهذه هى بواعث النفس التى استعصى على المبطلين أن يفهموها على جليتها ، فلم يفهموا منها إلا أنها بواعث إنسان غارق فى شهوات الحس ، شهوان » .

وهكذا تكشف السائحة عما فى جعبتها من أفكار المستشرقين !!

قلت : إن جواب كلماتك يحتاج إلى التفصيل ، فإذا لم يكن مما يوجب تصديع الخاطر أتقدم إلى بيانه ؟!

قالت : إننى أشكرك شكرا جزيلا ؛ لأننى أرغب كثيرا فى الوقوف على حقائق الأشياء !!

قلت : إن نبينا ﷺ تزوج فى بادىء الأمر بخديجة الكبرى ، وفى مدة حياتها لم يتزوج بامرأة غيرها[١٢٧]، فالذرية النبوية إنما هى باقية عنها ، وبعد وفاتها زوّجه حضرةُ أبى بكر صديقه الحميم بابنته عائشة ، فلما ترملت « حفصة » ابنة حضرة عمر رغب فيها كل من أبى بكر وعثمان فلم يتم شىء من ذلك !!

على أن نبينا ﷺ رغبة منه فى تلطيف خاطر عمر تزوج بها !! وأنتم تعلمون ما كان عليه حضرة « عمر » من رفعة الشأن والقدر !

وجميع نسائه إنما اقترن بهن لسِرٍّ وحكمة مما تقدم بيانه . وهناك سبب مستقل يتعلق بمسألة التحرى والبحث عن الكفء فى أمر الزواج ، فهذه المسألة كان يراعيها العرب مراعاة فوق الحد !

---

(١٢٧) فقد تزوج خديجة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ؛ وهو فى شرخ الصبا ، وريعان الفتوة ، ووسامة الطلعة ، وجمال القسمات ، وكمالُ الرجولية . مع ذلك ظلت خديجة وحدها زوجه ثمانيا وعشرين سنة حتى تخطى الخمسين . هذا على حين كان تعدد الزوجات أمرا شائعا بين العرب فى ذلك العهد ، وعلى حين كان لمحمد ﷺ مندوحة فى التزوج على خديجة – رضى الله عنها – أن لم يعش له منها ذكر ، فى وقت كانت توأد فيه البنات ، وكان الذكور وحدهم هم الذين يعتبرون خلفا . وقد ظل محمد ﷺ سبع عشرة سنة قبل بعثه ، وإحدى عشرة سنة بعده وهو لا يفكر قط فى أن يشرك معها غيرها فى فراشه ، ولم يعرف عنه فى حياة خديجة – رضى الله عنها – ولم يعرف عنه قبل زواجه منها أنه كان ممن تغريهم مفاتن النساء فى وقت لم يكن فيه على النساء حجاب بل كانت النساء تتبرج فيه ويبدين من زينتهن ما حرم الإسلام من بعد !

وكانت قبيلة قريش التى هى أشرف القبائل تأنف من أن تصل بناتهم ونساؤهم إلى رجال غير أكفاء لهن .

ومن حيث إن المشركين فى أوائل الإسلام كانوا يسومون المسلمين جَوْرا وعَسْفًا وجفاء هاجر عدد من سَراتهم[128] بأهاليهم إلى بلادِ الحبشة ، ثم بعد ذلك كانت الهجرة إلى المدينة بوجه عام ، وهذه المهاجرة أفقرت المسلمين .

وفى أثناء هذه الفترة أصبح عدد كبير من الرجال عُزّابا[129] ، وكثيرات من النساء أرامل .

ولما كان الزنا من المحرمات العظيمة فى دين الإسلام لم تراع مسألة الكفاءة تماما ، ومع ذلك فإن هذه المسألة ، أى : أمل وجود الأكفاء لم تبرح أذهان المهاجرين ، ولم تكن تطمئن قلوب المسلمين على النساء اللاتى لا يحصلن على الأكفاء*، فهذا هو السبب الرئيسى فى تكثير الزوجات المطهرات بعد الهجرة النبوية .

وهأنذا أورد لك بعض أمثلة فى هذا الشأن :

(١) أم حبيبة :

إن أم حبيبة ابنة أبى سفيان من رؤساء قريش كانت أول من آمن فهاجرت مع زوجها إلى البلاد الحبشية ، فتوفاه الله هناك !

ولبثت هى ثابتة فى دين الإسلام ، وحيث إن أكثر رؤساء قريش قتلوا فى غزوة بدر صار « أبو سفيان » رئيساً لقريش فى مكة وبلغ مكانة قصوى من النفوذ حتى إنه ليقال : إنه بعد عبد المطلب لم يأت رئيس صاحب نفوذ كأبى سفيان ؛ فإنه كان يسوق قريشاً بجملتها فى السبيل الذى يريده !

---

(١٢٨) أشرافهم . (١٢٩) جمع عازب : من لا زوج له .

* وإن كان الإسلام قد سوّى بين الجميع .

ولو كانت « أم حبيبة » راغبة فى الدنيا لذهبت توّاً إلى « مكة » على أمل أن تستفيد من نفوذ والدها وإقباله ، ومكانته .

غير أنها لم تكن من أولئك الذين يبيعون دينهم بدنياهم ؛ فحالة هاته المرأة المتدينة الصابرة التى انقطعت فى ديار الغربة قد استجلبت شفقة أهل الإسلام فكان من الأمور الطبيعية التفكير فى معاملتها باللطف لتحصل على السلوى ! وحيث لم يكن من أهل الإسلام أكفاء لها إلا بنو عبد المطلب ؛ لذلك أرسل الرسول الأكرم ﷺ سفيرا إلى النجاشى مُظهرا رغبته فى الاقتران بـ « أم حبيبة » . وقام النجاشى بإجراء عقد نكاحها فى الحبشة على الرسول الأكرم ، وأرسلها بكمال الاحترام إلى « المدينة المنورة » !

فالنساء بالطبع لا يُردن أن يكون لهن ضرائر !! إلا أن الزوجات المطهرات وعلى الخصوص السيدة « عائشة » زوجة النبى ﷺ المحبوبة لديه ، والمزيَّنة بالعلم والفضل — لم يكنّ يقلْن شيئا عن تعدد زوجات النبى ﷺ ؛ لأنهن كن يقدرن هذه المسائل المهمة حق قدرها[١٣٠]!

(٢) أم سَلَمة :

كذلك « أبو سلمة بن برة بنت عبد المطلب » كان من أول الذين آمنوا ، ومن أصحاب رسول الله ﷺ فهاجر مع زوجته « أم سلمة » إلى الحبشة ، ثم إلى « المدينة » وتوفى من جُرح أصابه فى

(١٣٠) يقول الأستاذ العقاد :

« أما النساء اللاتى اجتمعن فى بيت النبى ﷺ فلم تكن عليهن مهانة يشعرن بها ، أو يشعر بها أحد من أترابهن ، أو من عامة المسلمين ، أغنيائهم وفقرائهم على السواء ، بل كان دخول المرأة فى عداد أمهات المؤمنين شرفا لا يعلوه شرف ، ولا تطمع امرأة من أعرق البيوتات فى كرامة حاضرة باقية أرفع من هذه الكرامة التى تناظر بها سيدات العرب والعجم من أقدم العصور إلى آخر الزمان » !!

الحرب ، فظلت « أم سلمة » « أرملة » ولما كانت من أشراف قريش ، ومن ربات الحسن والجمال طلبها كل من أبى بكر وعمر ، فلم تقبل !

ثم طلبها النبى ﷺ فرضيت ، فتزوجها .

(٣) زينب بنت جحش :

وبعد ذلك تزوج الرسول الأكرم ﷺ – أيضا – بزينب بنت جحش مطلقة « زيد بن حارثة » معتُوقِه ، فهذا ما بعث المعترضين على الاعتراض كما قلتِ !

أما نحن فنعتبر أمر هذا الزواج « **مسألة مهمة** » والراغب فى الوقوف على الحقيقة يلزم أن يكون على معرفة من ترجمة حال « زيد وزينب » إجمالا .

أما « زيد بن حارثة » فهو من قبيلة قُضاعة أخذ أسيرا بينما كان صغيرا ، وبيع فى مكة ، فاشترته السيدة خديجة ، ووهبته إلى الرسول الأكرم ﷺ فأعتقه ، وتبناه ، وكان الناس يسمونه : بـ « زيد بن محمد » . وهو أحد الأربعة الذين آمنوا ابتداء ، وهم : خديجة ، وأبو بكر ، وزيد ، وعلى .

وكان الرسول الأكرم ﷺ يستخدم زيدا فى أهم الأشغال ، فولاه قيادة الجيش ورئاسة الجند .

وجملة القول :

أن « زيد بن حارثة » كان موضع حب الرسول ، ومَظْهر الحسن والرضا الذى توّجه الرسول الأكرم به .

وكان من أعاظم الملة الإسلامية ، فزوجه الرسول الأكرم ﷺ بابنة خالته أى : بزينب بنت أميمة بنت عبد المطلب .

غير أن زيد بن حارثة – مع أنه كان عربى الأصل – لم يكن قرشياً . أما بنات قريش ، فلم يكنّ يعرفن أكفاء لهن فى سائر القبائل خصوصا أولاد عبد المطلب ! فإنه يُبحث لهن عن الأكفاء فى أشراف قريش !!

على أن « السيدة زينب » لو كانت مسرورة من زيد لوجب أن تكون متكدرة من حيث إنه لم يكن كفئًا لها !

كما أن زيداً – أيضا – أخذ يفكر فى تلك المسألة الدقيقة ، فحمل أطوار زينب العادية على الكِبر والعظمة ، وهو أمر طبيعى كما لا يخفى !

فذهب ذات يوم إلى الرسول الأكرم ﷺ وشكا إليه ما يراه من عظمة زينب بالنظر إلى قرابته منها ، وأنبأه أنه سيطلقها ؛ إذْ بذلك يكون قد أنقذها من زوج غير كفءٍ لها ، وخلص نفسه من عظمتها !

على أن الرسول الأكرم ﷺ قال له ما معناه :

« دع عنك هذا الفكر ، وخَفِ الله ، إن المرأة لا تطلق لمثل هذه الأشياء »[131]!!

ومع هذا .. فإن « زيداً » لو طلقها لما أمكن أن يكون كفئا لمثل هذه السيدة الشريفة إلا صاحب الرسالة ﷺ فكان يمر بخاطره الرفيع ما أخبره الله به من وجوب الاقتران بها بعد طلاقها تطييبا لخاطرها ، وإحقاقا لحقوقها !

على أنه لم يكن يُظْهِرُ ذلك ؛ لأن الشخص الذى كان يتخذ ولدا فى ذلك الزمان كان عند الناس بمثابة الولد الحقيقى تماما ؛ فكانوا يزعمون بل يعتقدون أن من كان فى مقام الأب لا يجوز له أن يتزوج بمطلقة من تبناه .

---

(١٣١) كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم بقوله : ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ... ﴾ [الأحزاب : ٣٦ – ٣٧] .

إلى جانب أن الأحكام الشرعية لمثل هذه المسائل لم يكن هناك تفصيل بشأنها إذ ذاك .

أما « زيد » ، فإنه بعد أن أظهر أنه لم يعد يتحمل عظمة زينب ذهب إليها فطلقها ، وبعد أن انقضت عدتها نزلت الآيات الكريمة بالوحى الإلهى[١٣٢] فى بيان الأحكام الشرعية ، وبموجب هذا الوحى تزوجها الرسول الأكرم ﷺ ، وصدر الأمر بالتفريق بين الأولاد بالتبنى، وبين الأولاد الحقيقيين ، وأن ينتسب أولئك إلى آبائهم[١٣٣] .

وبعد أن كان يدعى « زيد ابن محمد » صار يدعى « زيد بن حارثة » . قالت : يفهم من هذا أن هذه الكيفية متبعة أيضا عن مسألة الأكفاء . قلت :

نعم ، إن الأصل فيها عبارة عن ذلك ، وفروع حكمتها أيضا إنما هى توثيق الأحكام الشرعية التى ستكون قانونا للأمة فى المستقبل[١٣٤]* .

---

(١٣٢) فى سورة الأحزاب [من رقم ٣٦ إلى ٣٧] .

(١٣٣) فى سورة الأحزاب . [من الآية رقم ٤ إلى الآية رقم ٦] .

(١٣٤) من شروط لزوم عقد الزواج أن يكون الزوج كفئا للزوجة إذا زوجت البالغة العاقلة نفسها . فلو زوجت نفسها بغير كفء وكان لها قريب من العصبة لم يرض بهذا الزواج ، فلهذا القريب أن يرفع الأمر للقاضى ويطلب فسخ الزواج . وهذا على الرواية الظاهرة فى مذهب الأحناف . ا . هـ .

[الزواج والطلاق فى الإسلام – زكى الدين شعبان] .

* زواج النبى ﷺ

للإسلام – كما يقول الأستاذ العقاد – خصوم محترفون ، وخصوم ينكرونه على قدر جهلهم به وبسيرة نبيه ﷺ ومن النادر أن يطرقوا موضوع الزواج دون أن ينتقلوا منه إلى زواج النبى ﷺ متخذين منه وسيلة إلى القدح فى شخصه الكريم ، ومن ثَمّ فى دعوته المباركة ودينه القويم .

وما اتفق خصوم الإسلام عن سوء نية على شيء كما اتفقوا على خطة التبشير فى موضوع الزواج على الخصوص فكلهم يحسب أن المقتل الذى يصاب منه الإسلام فى هذا الموضوع =

هو تشويه سمعة النبى ﷺ ، وتمثيله لأتباعه فى صورة معيبة لا تلائم شرف النبوة ، ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق فى طلب الإصلاح .

ولكنهم أخطئوا كل الخطأ فى اختيارهم هذه الخطة بعينها إذ أن جلاء الحقيقة فى هذا الموضوع أهون شيء على المسلم العارف بدينه المطلع على سيرة نبيه .

فلا حجة للمسلم على صدق محمد ﷺ فى رسالته أصدق من سيرته فى زواجه وفى اختيار زوجاته ، وليس للنبوة من آية أشرف من آيتها فى معيشة نبى الإسلام من مطلع حياته إلى يوم وفاته .

ما الذى يفعله الرجل الشهوان الغارق فى لذات الجسد إذا بلغ من المكانة والسلطان ما بلغهُ محمد ﷺ بين قومه .

■ لم يكن عسيراً عليه أن يجمع إليه أجمل بنات العرب ، وأفتن جوارى فارس والروم على تخوم الجزيرة العربية .

■ و لم يكن عسيرا عليه أن يوفر لنفسه ولأهله من الطعام والكساء والزينة ما لم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة فى زمانه .

فهل فعل محمد ذلك بعد نجاحه ؟..

هل فعل محمد ذلك فى مطلع حياته ؟..

كلا لم يفعله قط ، بل فعل نقيضه ، وكاد أن يفقد زوجاته لشكايتهن من شظف العيش فى داره !!

■ و لم يحدث قط أن اختار زوجة واحدة ، لأنها مليحة أو وسيمة .

● و لم يبن بعذراء قط إلا العذراء التى علم القوم جميعا أنه اختارها لأنها بنت صديقه وصفيه وخليفته من بعده : « أبى بكر الصديق » – رضى الله عنه –

● هذا الرجل الذى يفترى عليه الأئمة الكاذبون أنه الشهوان الغارق فى لذات حِسّه – قد كانت زوجته الأولى تقارب الخمسين ، وكان هو فى عنفوان الشباب لا يجاوز الخامسة والعشرين ، وقد اختارته لأنه الصادق الأمين فيما اشتهر به بين قومه من صفة وسيرة « وفيما لَقَّبَهُ به عارفوه ، وعارفو الصدق والأمانه فيه ، وعاش معها إلى يوم وفاتها على أحسن حال من السيرة الطاهرة والسمعة النقية ، ثم وفّى لها بعد موتها ، فلم يفكر فى الزواج حتى عرضته عليه سيدة مسلمة رقّت له فى عزلته فخطبت له « السيدة عائشة » بإذنه .

و لم تكن هذه الفتاة العزيزة عليه تسمع منه كلمة ترضيها غير ثنائه على زوجته الراحلة ووفائه لذكراها . وما بنى – عليه الصلاة والسلام – بواحدة من أمهات المؤمنين لما =

وصفت به عنده من جمال ونضارة ، وإنما كانت صلة الرحم ، والضّنّ بهن على المهانة هى الباعث الأكبر فى نفسه الشريفة على التفكير فى الزواج بهن ومعظمهن كن أرامل فقدن الأزواج أو الأولياء وليس من يتقدم لخطبتهن من الأكفاء لهن إن لم يفكر فيهن رسول الله ﷺ .

■ فالسيدة «سودة بنت زمعة» مات ابن عمها المتزوج بها بعد عودتها من الهجرة إلى الحبشة ، ولا مأوى لها بعد موته إلا أن تعود إلى أهلها فيكرهوها على الرِّدّة ، أو تتزوج بغير كفء لها ، أو بكفء لا يريدها .

● والسيدة «هند بنت أبى أمية»: أم سلمة. مات زوجها عبد الله المخزومى – وكان أيضا ابن عمها ، أصابه جرح فى غزوة أحد ، فقضى عليه ، وكانت كهلة مسنة ، فاعتذرت إلى الرسول ﷺ بسنها لتعفيه من خطبتها ، فواساها قائلا : «سل الله أن يؤجرك فى مصيبتك ، وأن يخلفك خيرا» . فقالت : ومن يكون خيرا لى من أبى سلمة ؟ وكان الرسول ﷺ يعلم أن أبا بكر وعمر قد خطباها ، فاعتذرت بمثل ما اعتذرت به إليه ، فطيب خاطرها ، وأعاد عليها الخطبة حتى قبلتها !

● والسيدة «رملة بنت أبى سفيان» تركت أباها وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة فتنصّر زوجها ، وفارقها فى غربتها بغير عائل يكفلها ، فأرسل النبى ﷺ إلى النجاشى يطلبها من هذه الغربة المهلكة ، وينقذها من أهلها إذا عادت إليهم راغمة من هجرتها فى سبيل دينها ، ولعل فى الزواج بها سببا يصل بينه وبين أبى سفيان بوشيجة النسب فتميل به من جفاء العداوة إلى مَوَدّة تخرجه من ظلمات الشرك إلى هداية الإسلام !

/ والسيدة «جويرية بنت الحارث» سيد قومه كانت بين السبايا فى غزوة بنى المصطلق ، فأكرمها النبى ﷺ أن تذل ذلة السباء فتزوجها وأعتقها ، وحضّ المسلمين على إعتاق سباياهم فأسلموا جميعا وحسن إسلامهم . وخيرها أبوها بين العودة إليه والبقاء عند رسول الله ﷺ فاختارت البقاء فى حرم رسول الله ﷺ .

● والسيدة «حفصة بنت عمر بن الخطاب» مات زوجها فعرضها أبوها على أبى بكر فسكت ، وعرضها على عثمان فسكت . وبث عمر أسفه للنبى ﷺ فلم يشأ أن يضن على صديقه ووليه بالمصاهرة التى شرف بها أبا بكر قبله ، وقال له : يتزوج حفصة من هو خير لها من أبى بكر وعثمان .

■ والسيدة «صفية الإسرائيلية» بنت سيد بنى قريظة خيرها النبى ﷺ بين أن يردها إلى أهلها أو يعتقها ويتزوجها فاختارت البقاء عنده على العودة إلى ذويها ! =

تساؤل حول الحجاب :

ثم إن السيدة أخذت بأطراف الحديث مع السيدات ، وكانت تسأل عن أسماء بعض مسميات فى اللغة التركية وتقيدها فى « محفظتها » وبعد انقضاء برهة على مثل هذه الحالة التفتت إلى وقالت متسائلة حول : « الحجاب » :

= ولولا الخلق الرفيع الذى جبلت عليه نفسه الشريفة لما علمنا أن «السيدة صفية» قصيرة يعيبها صواحبها بالقصر ، ولكنه سمع إحدى صواحبها تعيبها بقصرها ، فقال لها . ما معناه من روايات لا تخرج عن هذا المعنى : إنك قد نطقت بكلمة لو ألقيت فى البحر لكدرته ، وجبر خاطر الأسيرة الغريبة أن تسمع فى بيته ما يكدرها ويغض منها .

● والسيدة «زينب بنت جحش» . – ابنة عمته – زوجها من مولاه ومتبناه « زيد بن حارثة » فنفرت منه ، وعزّ على زيد أن يروضها على طاعته ، فأذن له النبى ﷺ فى طلاقها ، فتزوجها – عليه الصلاة والسلام – لأنه هو المسئول عن زواجها ، وما كان جمالها خفيا عليه قبل تزويجها بمولاه ، لأنها كانت بنت عمته ، يراها من طفولتها ، ولم تفاجئه بروعة لم يعهدها !

● والسيدة «زينب بنت خزيمة» مات زوجها عبد الله بن جحش قتيلا فى غزوة أحد ، ولم يكن بين المسلمين القلائل فى صحبته من تقدم لخطبتها ، فتكفل بها ﷺ ؛ إذ لا كفيل لها من قومها ! وهذا هو الحريم المشهور فى أباطيل المبشرين !! وأشباه المبشرين .

وهذه هى بواعث النفس التى استعصى على المبطلين أن يفهموها على جليتها ، فلم يفهموا منها إلا أنها بواعث إنسان غارق فى لذات الحسّ شهوان !

ولسنا نعتقد أن دينا رفيعا يسوِّل للمتدين به أن يفترى الأباطيل على خلق الله !

وأقبح من ذلك – فى شرع الدين الرفيع – أن يكون الافتراء على الناس سبيلا إلى التبشير بكلمات الله ، ولكن المبشرين المحترفين لايدينون بالله ولا بالناس ، وإنما يدينون بعبادة الجسد الذى يتكرونه ذلك الإنكار ، ويؤمنون به فى أعمالهم وأقوالهم أحسن الإيمان !

ألا تشتكين من إجباركن على التستر والحجاب[١٣٥]، ومن حرمانكن مصاحبة رجالكن[١٣٦]؟

قلت : أيتها السيدة ، إن الجواب الذى سأجيب به عن سؤالك ينقسم قسمين :

الأول – يتعلق بالأمر الشرعي .

والثانى – بالعرف والعادة بمقتضى إيجاب الحال والزمان .

وإليك البيان :

---

(١٣٥) من الأوهام الشائعة بين الغربيين – كما يقول الأستاذ العقاد – أن حجاب النساء نظام وضعه الإسلام » فلم يكن له وجود فى الجزيرة العربية ولا فى غيرها قبل الدعوة المحمدية ، وكادت كلمة المرأة المحجبة عندهم أن تكون مرادفة للمرأة المسلمة ، أو المرأة التركية التى حسبوها زمنا مثالا لنساء الإسلام ؛ لأنهم رأوها فى دار الخلافة ! » .

ومن قال : إن التستر والتصون للمرأة من الأمور التى تعافها نفوس الأحرار ؟! وإننا لسنا فى حاجة إلى التوسع فى قراءة التاريخ للعلم بأن نظام الحجاب سابق لظهور الإسلام ، لأن الكتب الدينية التى يقرؤها غير المسلمين قد ذكرت عن البراقع والعصائب ما لم يذكره القرآن الكريم ، ولم يكن البرقع مما ذكره القرآن الكريم فيما أمر به من الحجاب .

فإذا بحث القوم عن تاريخ الحجاب فى غير الكتب الدينية وجدوا أن الحجاب كان يتخذ لستر المرأة ، أو يتخذ للوقاية من الحسد ، ويشترك فيه الرجال والنساء على السواء . وأخبار البرقع جزء من الأخبار المستفيضة عن حجاب العزلة فى المنازل وخارج المنازل ، فى الطرقات والأسواق . وقد كان اليونان ممن فرض هذه العزلة على نسائهم . وكان الرومان على ترخصهم فى هذا الأمر يسنون القوانين التى تحرم على المرأة الظهور بالزينة فى الطرقات قبل الميلاد بمائتى سنة .

وقد غلا المترفون من الأقدمين فى حالى الحجاب والتسريح » فحجبوا المرأة ضنًّا بها ، وسرحوها هوانا عليهم لأمرها . أما الإسلام فقد عرف للمرأة قدرها وصانها لكيلا يطمع فيها من فى قلبه مرض وما أكثرهم فى هذا الزمان !!

(١٣٦) إن رؤية امرأة محجبة يثير فى أنفس هؤلاء كل أحقاد العداوة الصليبية .

إن المعنى فى تحجب المرأة هو حفاظها على الدين والعقيدة ومادامت المرأة المسلمة متدينة ، ومحافظة على الدين والعقيدة فإن ذلك يعنى فشل خططهم الشيطانية » وإفساد مادبروه فى ليل الفساد والجريمة !!

إن شعور النساء زينة لهن ، وداعية لاستجلاب الأنظار كثيرا بناء على ذلك .

وكما أن « المِلّة الموسوية » قد منعت من إراءة هذه الزينة المبهجة للرجل فهكذا الشريعة الإسلامية نهت عنها أيضا[١٣٧].

قالت : إذن كان يجب عليكن أن تسترن شعوركن فقط حالة كونى رأيت النساء المسلمات فى الأزقة يحتجبن تمام الاحتجاب غير مكتفيات بستر الشعور !

قلت : أَجَل .. إن ستر الشعر كافٍ أيتها السيدة .. على أن المرأة يجب أن تحافظ على كل طرف من ألبستها المكتسية بها وأن تكون فى

= إنهم يشجعون تبرج المرأة وخروجها على تقاليد الدين والأسرة ! يفعلون ذلك تحت شعارات زائفة من التقدم والحرية .. تقول المبشرة « أنا مليجان » : « **ليس هناك طريق لهدم الإسلام أقصر مسافة .. من خروج المسلمة سافرة متبرجة** » !!

والمفهوم من الحجاب واضح بغير تفسير ، فليس المراد به إخفاء المرأة وحبسها فى البيوت ؛ لأن الأمر بغض الأبصار لا يكون مع إخفاء النساء وحبسهن وراء جدران البيوت » وتحريم الخروج عليهن لمزاولة الشئون التى تباح لهن .

ولم يكن الحجاب – كما ورد فى جميع الآيات – مانعا فى حياة النبى ﷺ من خروج المرأة مع الرجال إلى ميادين القتال ، ولا أن تشهد الصلاة العامة فى المسجد !!

(١٣٧) جاء الإسلام – كما يقول الأستاذ العقاد – والحجاب فى كل مكان وُجد فيه تقليد سخيف وبقية من بقايا العادات الموروثة ، لا يُدرى أهو أَثَرَةٌ فردية ، أم وقاية اجتماعية ، بل لا يدرى أهو مانع للتبرج ، وحاجب للفتنة ، أم هو ضرب من ضروب الفتنة والغواية ، فصنع الإسلام بالحجاب ما صنعه بكل تقليد زال معناه وتخلفت بقاياه بغير معنى ، فأصلح منه ما يفيد ويعقل ، وجعله أدبا خلقيا يستحب من الرجل والمرأة ، ولا يفرق فيه بين الواجب على كل منهما إلا لما بين الجنسين من فارق فى الزينة واللباس والتصرف بتكاليف المعيشة وشواغلها .

فالمؤمنون مطالبون بأن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، والمؤمنات مطالبات بذلك : ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها** ﴾ [النور : ٣١] .

ونهى الرجال عن الزينة المخلة بالرجولة ، ونهى النساء عن مثلها : ﴿ **وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى** ﴾ [٣٣/ الأحزاب] .

حالة لا تجعل بها سبيلا لإظهار قَوامها و« كسمها »[١٣٨] فالنساء التركيات اللاتى ترينهن الآن لا يكتسين بمثل ما تكتسى النساء الأوربيات ، والسيدات اللاتى تشاهدينهن فى هاته الجمعية هن الآن بألبسة الزيارات[١٣٩]!

فإذا كان هناك عرس أو وليمة اكتسين بمثل ما تكتسين أنتن به فى الليالى الراقصة وفى الولائم[١٤٠].

فإذا لبسن شيئا عارَضَ الزينة فوق هذا « البهرجان » وستر الرأس بستار فوق الشعر عُدّ ذلك تستُّرا موافقا للشريعة !

أما النقاب (ياشمق) ، والغطاء المسمى : (فرجة وجار شاف) فهى من عادات البلاد التى اتخذت مؤخرا[١٤١].

ومازالت القرويات ونساء العشائر يكتفين بستر الرأس فقط ؛ لأن ملابسهن خالية من ضروب الزينة فهن – والحالة هذه – يجالسن الرجال ، ويَجُلْن معهم » ويشاركنهم فى الأشغال .

وأذكر لك قبيلة الملثمين الضاربة فى صحارى إفريقيا ، وهى القبيلة التى تشكل منها دولة فى بلاد المغرب ، ونساء هذه القبيلة إلى

---

(١٣٨) أى أن تكون الثياب بحيث لا تشف ولا تصف فضلا عن كونها ساترة لعورتها . بما فى ذلك الشعر بلا خلاف على وجوب ستره ، والوجه على خلاف فى ذلك . وقد علقنا على ذلك من قبل بأن الصحيح وجوب ستره .

(١٣٩) أى الألبسة التى ترتديها النساء حين يخرجن من منازلهن لزيارة أهلن وذوى قرباهن فإنهن يلبسن من الألبسة ما يحميهن ويصونهن من الأعين على طريقهن .

(١٤٠) وفى ذلك خروج على ما أمرنا به الدين من التصون وغض الأبصار وعدم إبداء الزينة وتقليد لمن هم على غير ديننا ، وقد أصبحت تلك الحفلات مجالا لإبراز المفاتن ، والعياذ بالله ! وارتكاب ما نهى الله عنه !

(١٤١) كثيرا ما يخلط الأوربيون بين الدين والعادات التى تأصلت فى الشعب التركى وراحوا يعيبون بها الإسلام وهو منها براء !

الآن يجلن سافرات الوجوه . أما الرجال فإنهم يسترون وجوههم ، وهذه عادة مألوفة عندهم[١٤٢].

فإذا كانت شعور النساء المسلمات مستورة ، فالوجه شرعا غير محرم[١٤٣].

وعليه فإن النساء لا يمتنعن شرعا من محادثة الرجال ، والاجتماع بهم إذا كانت أجسامهن مستورة بالملابس ، ومضروب على شعورهن الخمار[١٤٤].

---

(١٤٢) تحكى الكاتبة واقعا وتصوره للسائحة فى هذه الفقرة والتى قبلها وسنتصدى فى التعليق الآتى لما جاء فيها .

(١٤٣) سبق أن عرضنا الفتوى بوجوب ستر الوجه وذكرنا أن رأى الكاتبة يخالف الصحيح من أقوال العلماء الذى دلت عليه الأدلة الشرعية .

(١٤٤) من أراد أن يعرف ما جناه الاختلاط من المفاسد التى لا تحصى فلينظر إلى تلك المجتمعات التى وقعت فى هذا البلاء العظيم يجد التذمر – على المستوى الفردى والجماعى – والتحسر على انفلات المرأة من بيتها وتفكك الأسر والأدلة الصحيحة الصريحة الدالة على تحريم الخلوة بالأجنبية وتحريم النظر إليها ، وتحريم الوسائل الموصلة إلى الوقوع فيما حرم الله أدلة كثيرة قاضية بتحريم الاختلاط ، لأنه يؤدى إلى ما لا تحمد عقباه .

واجتماع الرجال بالنساء الأجنبيات فى مكان واحد بحكم العمل أو البيع أو الشراء أو النزهة أو السفر أو نحو ذلك هو الاختلاط المنهى عنه .

إن التبرج هو التكشف والظهور للعيون ، والزينة ما تتخذه المرأة لتحسين خَلْقها ، ومواضعها ظاهرة وباطنة .. وتبرج النساء بالزينة فى البيوت وفى الأندية ، وفى المتاجر ، وفى الملاهى ، وفى الطرقات من أقتل العلل ، وأفتك الآفات الاجتماعية ، وهو محرم على أية امرأة كائنا ما كان سنها ؛ لأنه جُرثومة الفساد ، وسوس الآداب والأخلاق ، وأوسع أبواب الشرور التى يندفع منها الشباب وهم ثائرو الغرائز ، وينزلق منها فى مزالق الفتنة والإغراء » وإلى هذه المفاسد وغيرها يشير قوله ﷺ : « **ماتركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء** » !

أما هؤلاء المتبرجات فلابد أن يجرفهن القيل والقال » وتلوك الألسنة سمعتهن فى السر والعَلَن » وتحيط بهن الشكوك والتُّهَم ، ولا أجر لهن .

قالت : فإذن لماذا لا تجتمعن بالرجال ، ولا تجالسنهم(١٤٥)؟!

قلت : إن فى كل مِلّةٍ عادات كثيرة ، واصطلاحات شتى حادثة وهذا أصبح عندنا عادة مألوفة(١٤٦).

قالت : والحالة هذه لم يكن ذلك من الضروريات الدينية(١٤٧)؟!

قلت : إن النساء فى زمن النبى ﷺ كن يسترن رءوسهن ، وكن يجتمعن بالرجال حالة كون شعورهن مغطاة(١٤٨).

والكل يعلم أن كثيرا من السراة(١٤٩) كانوا يذهبون إلى السيدة فاطمة الزهراء « ويتذاكرون معها .

— ولقد ذكر رسول الله ﷺ صنفين من أهل النار ، فبعد أن بين أحدهما قال : « ونساء عاريات كاسيات ، مُميلات ، مائلات ، رءوسهن كأسنمة البُخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها » .

وإنما جعلهن – عليه الصلاة والسلام – كاسيات ؛ لأن عليهن ما يسمى ثيابا ، وإنما وصفهن بأنهن عاريات ، لأن ثيابهن رقت والتصقت حتى وصفت أجسامهن ، وأبدت مفاتنهن المثيرة « فهن كالعاريات » ، وهن أيضا عاريات من لباس التقوى ، لا يتقين الله فى دين ولا فى خلق ، ولا يتقين الله فى المجتمع الذى أصيب بهن .

فبئست العاريات زوجات ، وبئست العاريات مربيات بنين وبنات ! وبئست العاريات أمهات ! وبئست العاريات راعيات أسر ، وبئست العاريات مربيات ومعلمات ، وبئس القوامون عليهن رجالاً لا يتذوقون طعما للمروءة ، ولا يفهمون معنى للشهامة والكرامة .

[الأسرة فى التشريع الإسلامى للسنهورى]

(١٤٥) هنا نرى السائحة تكشف عن نواياها وما وراء أسئلتها .

(١٤٦) كأنما تريد الكاتبة ألا تدخل معها فى جدال حول الاختلاط ومضاره مفضلة أن تمسكها بأن عدم خروجهن أصبح عادة مألوفة مرضيا بها منهن .

(١٤٧) هذا ما تريد أن تصل السائحة إليه وتنادى به وتبثه بين المسلمات ليتخلين عن قيمهن وتصوُّنهن !

(١٤٨) من الثابت أن خروج النساء بعد نزول الحجاب كان فى إطار الخدمات العامة التى تقدم للجند من إطعام وسقاية ومداواة جرحى وإن اضطررن فى بعض المواقع إلى القتال دفاعا عن النفس كما فعلت « خولة بنت الأزور » يوم اليرموك .

(١٤٩) السادة والأشراف .

وفى التواريخ : أن أهالى مكة بينما كانوا من ذوى العصيان على النبى ﷺ وفد أبو سفيان رئيس رؤساء مكة على المدينة بعقد الصلح ، ولما لم يفز بوعد من رسول الله ﷺ ومن أصحابه ذهب إلى السيدة فاطمة الزهراء – رضى الله عنها – يرجوها التوسط فى الصلح[١٥٠].

وبعد وفاة النبى ﷺ كان أعظم العلماء وأفاضل الأصحاب الكرام يتواردون على مجلس زوجته المطهرة عائشة – رضى الله عنها – ويطرحون عليها المسائل ، وينالون الأجوبة عنها[١٥١].

وكان النساء المباركات فى ذلك العصر فاضلات عالمات كالرجال .

أما السيدة فاطمة والسيدة عائشة – رضى الله عنهما – فقد اشتهرتا أيما اشتهار بالعلم والفضل ، وقرض الشعر ، وفصاحة الإنشاء .

---

(١٥٠) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية ص ٣٩٦ قصة « خروج أبى سفيان إلى المدينة للصلح وإخفاقه » .

ويقول الأستاذ توفيق أبو علم فى كتابه « أهل البيت » تحت عنوان : مشاركة الزهراء فى الشئون العامة « : نشأت – رضى الله عنها – نشأة نبوية ، وقد ثبت اشتراكها فى بعض غزوات الرسول ﷺ ، وكان يصطفيها لأسراره ، فاشتركت فعلا مع أبيها فى حروبه ، وكانت تجاذب أباها وزوجها فى الشئون الخارجية ، وكان رسول الله ﷺ يحضرها فى الأمور الهامة ، فقد حضرت بيعة النساء ، كما حضرت مباهلة نجران ، فقد نزل على النبى ﷺ قوله تعالى : ﴿ **فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين** ﴾ [آل عمران : ٦١] .

وقد ذكر الواقدى أن السيدة فاطمة – رضى الله عنها – فى معركة أحد كانت تضمد جراح المسلمين .. » .

(١٥١) اما تلك اللقاءات فقد كانت فى إطار قوله تعالى : ﴿ **فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن** ﴾ . [الأحزاب : ٥٣] .

وكان الرجال – فضلا عن النساء – يستفيدون من علمهما وفضلهما[١٥٢]. وبعد زمن السعادة كان كثيرون يتعلمون السنة من السيدة عائشة رضى الله عنها ، ويذهبون إلى مجلسها العالى فيتلقون ذلك عنها .

فكما أن تبليغ الشريعة كان على مثل ما وصفت فى زمن الرسول الأكرم ﷺ هكذا كان أزواجه وبناته المطهرات يسترن رءوسهن أيضا ، وكانت أمهات المؤمنين بجملتهن حائزات على شرف لا يضاهَى ، ومنزلة لا تبارَى لدى جميع الناس .

وكان الناس يجدون فى زيارتهن مودة فى القُرْبى غير أن السيدة عائشة كانت تمتاز عنهن بالعلم والفضل ، فكان الأُصحاب الكرام يرجعون إليها زيادة عن غيرها ويتعلمون منها الأحكام الدينية ؛ ولذلك كان كلامها مسموعا ومعتبرا أكثر من سائرهن ، وكانت هى محترمة كل الاحترام .

---

(١٥٢) ويقول الإمام الذهبى فى كتابه سير أعلام النبلاء : عن فاطمة – رضى الله عنها – : ولها فى مسند بَقِىّ ثمانية عشر حديثا ، منها حديث واحد متفق عليه .

ثم يروى عن ميسرة بن حبيب ، عن المنهال بن عمرو ، عن عائشة بنت طلحة ، عن عائشة – أم المؤمنين – رضى الله عنها – قالت : « ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثا برسول الله ﷺ من فاطمة ... » ميسرة صدوق .

وعن ابن حميد : حدثنا سلمة : ثنا ابن إسحاق ، عن يحيى بن عباد عن أبيه عن عائشة قالت : « ما رأيت أحدا كان أصدق لهجة من فاطمة إلا أن يكون الذى ولَدَها » .

ثم يقول الإمام الذهبى عن عائشة – رضى الله عنها – مسند عائشة يبلغ ألفين ومائتين وعشرة أحاديث اتفق لها (خ ، م) على مائة وأربعة وسبعين حديثاً ، وانفرد (خ) بأربعة وخمسين ، وانفرد « م » بتسعة وستين .

ثم يقول : ولم يكن أعلم فى أمة محمد ﷺ – بل ولا فى النساء مطلقاً امرأة أعلم منها .

ويروى الإمام الذهبى فى سير أعلام النبلاء ما أخبره به أبو محمد عبد الخالق بن علوان بسنده فيقول .

قالت : أهى عائشة التى افترى عليها[١٥٣]؟!

قلت : هى عائشة بنت أبى بكر الصديق التى كان افترى عليها بعض المنافقين . أليس أن اليهود قد افتروْا هذا الافتراء على حضرة مريم سيدة النساء ؟

قالت : أسألكِ عفوا على قطع حديثك ، فداومى ما بدأت به .

قلت :

إن قاعدة التستر ظلت وقتا طويلاً على مثل هاته الحال .

إلا أن فساد الزمان قد أفرغها فى صور أخرى فالعادة منعت النساء من الاجتماع بالرجال ومجالستهم[١٥٤].

= كان مسروق إذا حدث عن عائشة قال : حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله « المبرأة من فوق سبع سموات فلم أكذبها . ثم يروى عن الأعمش عن أبى عن مسروق قال قلنا له : هل كانت تحسن الفرائض ؟ قال والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض .

وكان عروة يقول لعائشة : يا أمتاه ، لا أعجب من فقهك ، أقول : زوجة نبى الله ، وابنة أبى بكر ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس . ابنة أبى بكر ، وكان أعلم الناس ، ولكن أعجب من علمك بالطب ، أين هو ؟ أو ماهو ؟ قال : فضربت على منكبه وقالت : أى عُرَيّة ، إن رسول الله ﷺ كان يسقم عند آخر عمره – أو فى آخر عمره – وكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات وكنت أعالجها له ، فمن ثم .

(١٥٣) يروى الإمام الذهبى عن عائشة بإسناد جيد : « لقد أعطيت تسعا ما أعطيتها امرأة بعد مريم ابنة عمران : لقد نزل جبريل بصورتى فى راحته حتى أمر رسول الله ﷺ أن يتزوجنى ، ولقد تزوجنى بكرا وما تزوج بكرًا غيرى ، ولقد قبض ورأسه فى حجرى . ولقد قبرته فى بيتى ، ولقد حفت الملائكة بيتى ، وإن كان الوحى أنزل عليه وإنى لمعه فى لحافه ، وإنى لابنة خليفته وصديقه ، ولقد نزل عذرى من السماء ، ولقد خلقت طيبة عند طيب ، ولقد وعدت مغفرة ورزقاً كريماً » . (رواه أبو بكر الآجرى عن أحمد بن يحيى الحلوانى عنه . وإسناده جيد) .

(١٥٤) وخلاصة القول أن : من يطلع على حكمْ الإسلام فيما ينبغى على المرأة ستره يجد أن أئمة المسلمين كلهم قد أجمعوا على ما يلى : =

قالت :

إذا كانت أحكام الحجاب فى الدين الإسلامى كما وصفتِ فلماذا لا تسمحون للرجال برؤية البنات اللاتى سيكن لهم زوجات(١٥٥)؟!

قلت :

أولاً – لا يجوز أن تكشف المرأة أمام غير الذين استثناهم الله – عز وجل – شيئاً أكثر من وجهها وكفيها .

ثانياً – لا يجوز لها أن تكشف الوجه والكفين أيضا ، إذا علمت أن حولها من قد ينظر إليها النظر المحرم الذى نهى الله تعالى عنه ، بأن يتبع النظرة النظرة ، ولا تستطيع أن تزيل هذا المنكر إلا بحجب وجهها عنه . وعلى هذه الحالة يحمل ما نقله الخطيب الشربينى عن إمام الحرمين من اتفاق المسلمين على منع النساء من الخروج سافرات الوجه . « مغنى المحتاج : ١٢٩/٣ » .

وقد صرح بهذا القيد القرطبى فيما نقله عن ابن خويز منداد من أئمة المالكية : « أن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفيها الفتنة فعليها ستر ذلك » . [تفسير القرطبى ٢٢٨/١٢] .

وقال صاحب الدر المختار من الحنفية : « وتمنع المرأة الشابة من كشف الوجه بين الرجال لا لأنه عورة ، بل لخوف الفتنة ، ولا يجوز النظر إليه بشهوة » « الدر المختار على هامش ابن عابدين ٢٨٤/١ » .

ثالثاً – اتفقوا على جواز كشف المرأة وجهها ترخصا لضرورة تعلم ، أو تطبب ، أو عند أداء الشهادة أو تعامل من شأنه أن يستوجب الشهادة .

فهذه النقاط الثلاث محل إجماع لدى الأئمة وعامة الفقهاء . ثم إنهم اختلفوا فيما عدا ذلك .

(١٥٥) من قال بأنه غير مسموح للخاطب أن يرى مخطوبته ؟!

إن عقد الزواج يسبقه أمران هامان : أولهما : التعرف . والثانى الخِطبة . وللتعرف وسائل عديدة وأهم هذه الوسائل : النظر مع استفتاء القلب والضمير « واستشارة العقلاء » واستخارة الله سبحانه وتعالى .

فالنظر أصلا من جانب كل من الجنسين للآخر بغرض التأمل . وإتباع النظرة لا يجوز بل هو حرام لقوله تعالى : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم .. ﴾ [النور : ٣٠ – ٣١] . =

إن هناك أماكن تجيز ذلك وخصوصا فى « بوستة » ؛ فإن الرجال لا يقترنون بالبنات إلا بعد أن تتمكن من الفريقين روابط المحبة ، وهذه أصبحت عادة عندهم[١٥٦].

وفى كل محل يجوز شرعا أن يرى الرجل وجه الفتاة التى سيقترن بها حتى أن نبينا ﷺ قال : « انظروا » وقال : « تخيروا »[١٥٧].

لكن لكل بلدة عادة مخصوصة بها : فأهل تلك البلدة لن يتمكنوا من نبذ هذه العادة والخروج عن دائرة الحد المرسوم ، وجميع ذلك من العادات ، لا من المسائل الدينية .

قالت : لا جرم أنها عادة غير ملائمة ، فالواجب تركها ، أليس أن اقتران الرجل ببنت لا يعرفها ، وانتقال البنت إلى رجل لا تعرفه من أعظم المشاكل ؟

قلت : إن هذا لم يكن من المشاكل العظيمة عندنا فلو كان فى شىء من ذلك لنبذ ظهريا . غير أنه بمقتضى المساغ فى ديننا يمكن إذا حصل اتفاق بين عائلتى الفتاة والشاب أن يرى كل منهما الآخر قبل الزواج[١٥٨].

= لكن الشارع استثنى من حرمة النظر بعض الأمور للمصلحة . ومن هذه الأمور : النظر للخِطبة عند إرادتها والعزم عليها ، وهذا النظر حق لكل من الخاطب والمخطوبة . والدليل على ذلك الكثير من النصوص الثابتة فى السنة منها ما رواه مسلم فى كتاب النكاح : « جاء رجل إلى النبى – ﷺ – فقال : إنى تزوجت امرأة من الأنصار . فقال له النبى ﷺ هل نظرت إليها فإن فى عيون الأنصار شيئاً ؟ قال : قد نظرت إليها » .
وقال النبى ﷺ للمغيرة بن شعبة « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » . أخرجه الترمذى فى أبواب النكاح والنسائى فى كتاب النكاح .

(١٥٦) عندما تتعارض العادات والأعراف مع مقررات الشريعة فهى مرفوضة خصوصا فى فترات ضعف الأمة وأخذها بأعراف أعدائها .

(١٥٧) وردت أحاديث كثيرة بالنظر عند الخِطْبة كما ذكرت قبلا ، وأحاديث بالتخير للنطف ، واختيار ذات الدين .

(١٥٨) فى وجود محرم .

قالت : أتكفى نظرة واحدة ؟! لا جرم أنه يجب عليهما أن يجتمعا مليا بعضهما ببعض ، وأن يتسامرا وقتا طويلا ، وأن يدرس كل منهما طبيعة الآخر . وأخلاقه ، وأحسن من ذلك أن يتحابًا ، وتتمكن بينهما عقود الحب ، ليعيشا فى الزواج عيشة راضية !

قلت : فى اعتقادنا أن الوسيلة المألوفة فى الألفة ، وحسن الامتزاج ليست فى شىء مما ذهبت إليه .

إن ثمانين بل تسعين فى المائة من الزواج عندنا على مثل هاته الأصول تأتى بأفضل نتيجة من حسن الامتزاج .

مع أن الزيجات التى تحصل فى أوربا جميعها بسبب الحب والعشق لا يترتب عليها امتزاج بين الزوجين ؛ فإن كثيرا ممن تزوجوا عشقا وهياما قد انطفأت جذوة حبهم بعد ستة أشهر أو سنة من زواجهم ، وأصبح عشقهم هباء منثورا كأن لم يكن بالأمس شيئا مذكورا !!

وكثيرا ما أدى بهم ذلك إلى انفصال بعضهما عن بعض ! واضطر كل منهما أن يعيش منفردا .

ولعمرى إن العشق الحقيقى إنما هو أندر من النادر ، لكنْ هناك الكثيرون الذين يسعون إليه !

ألسنا نجد عددا لا يحصى من الفتيان يتوهمون الوساوس عشقاً ، ويظنونه حبا ؛ فيسقطون فى أوحال الخيال ؟!

ألسنا نجد أن هذا الظن الخيالى يصل بهم إلى حد أنهم ينفصلون عن آبائهم وأمهاتهم ، فيفرون من منازلهم ، وينعزلون عن أقاربهم ، غير أنهم يشعرون بعد ذلك بفساد هذا الوهم والظن فيندمون ولات ساعة مندم ، ويكرهون ظنونهم، وينقلب عشقهم حقدا وبغضا ، فيصيرون إلى أسوأ الأحوال !

ومعلوم أنه لا يجب الحكم على الظنون فى انتخاب الزوجة والزوج ، بل يجب أن تهتم العائلات بالوقوف على الحقائق .

وعندى أن الشاب والفتاة متى كانا متعاشقين متحابين فلا يتأتى لهما أن يدرس بعضهما أخلاق بعض ، ولا آدابهما وطبيعتهما وصفاتهما ومزاياهما ولا أن يقدراها حق قدرها ، وإنما تقدير ذلك منوط بأكابر العائلتين فينبغى للوالدين أن يعقدا العقد بعد استشارة أولادهما وبناتهما والحصول على رضاهما .

بخلاف ما إذا تركت المسألة لمثل هؤلاء الفتيان فإنها تنتج أكداراً كثيرة للوالدين والأقرباء والمحبين وربما بلتهم بلاءً مرّاً(١٥٩) .

وأظن أنه فى أوربا أيضا لا يطلقون العنان للبنات والشبان ، ولا يمنحوهن الحرية التامة فى مثل هذا الزواج .. أليس كذلك أيتها السيدة ؟!

قالت : هكذا لا يطلق للفتيان عنان الحرية للتفكر فى نهاية عواقب الأمور .

---

(١٥٩) لقد احتاطت الشريعة الإسلامية فى هذا الأمر فلم تبح الخلوة بالمرأة قبل الزواج ، ولم تجز الجلوس معها إلا فى حضور محرم « كأبيها أو أخيها يقول ﷺ : «لا يخلون رجل بامرأة إلا مع محرم » [رواه البخارى ومسلم] .

ولا ريب أن ما سنه الإسلام لتعرف كل من المرأة والرجل بالآخر عند الرغبة فى الزواج من جواز أن ينظر كل منهما للآخر فى غير خلوة ، وتحرى كل منهما عن الآخر بكل الوسائل المشروعة هى الطريقة المثلى التى تقتضيها الفطرة السليمة ويقرها الخلق الكريم ، وهى الطريقة المعتدلة بين إفراط الجاهلين الذين يبالغون فى الحيلولة بينهما ، ولا يسمحون له برؤيتها ، وبين تفريط المسرفين الذين يبيحون للخاطب الاختلاط بمخطوبته ، وزيارته له فى البيت وحدها واصطحابها معه فى رحلاته ونزهاته مما يؤدى إلى كثير من المفاسد والمساوىء ، وكثيرا ما أدى الاختلاط والانفراد بالمخطوبة إلى الوقوع فى الحرام ، وكثيرا ما يترك الخاطب خطيبته بعد أن يخالطها مدة طويلة فتتعرض سمعتها للأقاويل ، وينصرف الناس عنها .

قلت : وجملة القول : أنه من الخطأ أيتها السيدة حسبان هذه الأمور من مقتضى الدين ، فليست سوى عادات ، وأن لكل بلاد عادات مخصوصة بها والإنسان أسير العادة ، أما تعديل العادة فإنه يتم تدريجيا ، والطَّفْرَة محال .

والمسلمون قد ازدادوا تمسكا بعادة ستر الوجه بالنّظر إلى الفائدة التى رأوها منها(١٦٠).

والعادات الحسنة والقبيحة ليست مخصوصة بقوم دون آخرين ، وإنما ذلك متساوٍ فى جميع الملل ، ثم إذا أعدت النظر فى الشرائع السالفة لرأيت أن الدين الذى يصدق على دين جاء قبله قد بدل وعدل بعضا من أحكامه أيضا ، ولحكم الزمان تأثير كلى فى هذا الباب .

إن أمنا السيدة حواء - عليها السلام - كانت تضع توأمين فى كل مرة ذكرا وأنثى ، ولم يكن من الجائز فى ذلك الزمان أن يقترن الفتى بالفتاة فى حين أنهما نزلا من بطن واحد ، بل كان من مقتضى شريعة آدم أن يكون الزواج بمن وضع فى بطن آخر .

وعليه فإن سيدنا آدم - عليه السلام - عندما أمر أن يتأهل « قابيل » الذى ولد ابتداء بتوأم « هابيل » وهذا بتوأم « قابيل » لم يرض بذلك قابيل فقتل أخاه « هابيل »(١٦١) فمما تقدم يعلم أن اقتران التوأمين كان ممنوعا ثم بعد ذلك حرم زواج الأخت تحريما مطلقا(١٦٢)، وكان من الجائز أن يقترن الرجل بأخته ، ويجمع بينهما

---

(١٦٠) نرى الكاتبة بعد أن دافعت عن الحجاب عدا الوجه عادت لتقرر أن المسلمين قد ازدادوا تمسكا بعادة ستر الوجه بالنظر إلى الفائدة التى رأوها منها لتقف فى النهاية مع القائلين بوجوب ستره بالنظر إلى الفائدة التى رأوها من الستر .

(١٦١) يشير القرآن الكريم إلى قصة ابنى آدم فى سورة المائدة بقوله سبحانه : ﴿ واتل عليهم نبأ ابنى آدم ... ﴾ . [الآيات : ٢٧ - ٣١] .

(١٦٢) ويشير القرآن الكريم إلى تحريم الأخوات بقوله سبحانه : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم ... ﴾ . [النساء : ٢٣] .

إلى أن جاء النبى « موسى » عليه السلام ، فأصبح هذا الحكم منسوخا .

وإنى أضرب لك مثالا آخر من « إنجيل متى » فقد ورد فى الفصل التاسع عشر منه : أن سيدنا عيسى – عليه السلام – حالة كونه صدّق على التوراة – فقد منع الطلاق . وقت ذلك سئل (بما معناه) :

– إذن لماذا أذن موسى بالطلاق ؟!

فأجاب سيدنا عيسى :

« إن موسى إنما كان أذن بالطلاق بالنظر إلى قسوة قلوبكم »

وبناء عليه : فإن سيدنا عيسى منع الطلاق لغير علة الزنا[١٦٣].

قالت : أجل .

وفى أثناء ذلك أطلقت مدافع الإفطار فذهبنا إلى المائدة ، أما « المدام » فكانت تتناول من كافة ألوان الطعام بقابلية ،ولم تَرَهُ غريبا عن ذوقها ، وكانت تسألنا عن أسمائها ، فلما صار الطعام على وشك الختام ، أقبل الأرز ؛ فقالت سائلة :

إن الأرز عند الأتراك إنما يقدم فى آخر الطعام ، وهو دليل على نفاد الألوان .

قلت : نعم إنه لكما أشرت .

قالت : إن « استانبول » هى بمثابة « فهرست للإنسان »[١٦٤]. كما أن مائدة الأتراك بمنزلة « فهرست للطعام » . فقد أكلت على هذه

(١٦٣) يقول الأستاذ العقاد فى هذا المجال : روى إنجيل متى أن السيد المسيح سئل عن الطلاق فاستنكره لقسوته ، وقال :

« إن من طلق امرأته لغير الزنى جعلها تزنى ، ودفع بالزوجة إلى اقتراف الرذيلة » .

« وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق . وأما أنا فأقول لكم : إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى ، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى » .

(١٦٤) حيث كانت عاصمة للخلافة ، وفيها يلتقى الناس من جميع الأجناس .

المائدة من طعام جميع الأمم وفى الواقع أن ما قالته تلك السيدة كان صحيحا ، وقد كنا ذكرنا لها أسماء الطعام إجابة لسؤالها فكان مؤلفا فى ذلك الحساء من اللحم والسمك وكانا مطبوخين على النسق الإفرنجى . وكان ثَمّ « دجاج جركس » و« كشك الفقراء » المعروف فى البلاد العربية .

و« شيخ المحشى » و« الباذنجان بالزيت » .

وكنت أترجم للسيدات اللاتى على المائدة كلام السيدة وكانت الغرفة التى تناولنا فيها الطعام قائمة فى الطابق العلوى من المنزل ، وعلى طرف الجُنَيْنَة ، وكان لها باب كبير بمصراعين يفتحان على جُنَيْنَتِنا

وبعد أن نهضنا عن المائدة لم نعد إلى القاعة ، وإنما أرسلنا كرسيَّين إلى الجُنَيْنة من الباب المطل عليها قصد أن نُرَوّح أنفاسنا بعبير الأزهار التى كانت تتضوع كأريج المسك ، وتناولنا القهوة هناك .

وكان القمر بدرا (أى : فى اليوم الرابع عشر) يرسل أشعته فينير ظلمات الأرض ، والهواء كان عليلا لطيفا جدا .

وبعد أن انتهينا من شرب القهوة تبادلنا مناولة الأذرع(١٦٥) وتفرقت جمعيتنا التى كانت مؤلفة من طبقات متفاوتة فى السن فى أطراف الجُنَيْنة العريضة الواسعة ، وكانت تجتمع أحيانا لمبادلة بعض الكلمات ثم تفترق ذهابا وإيابا .

المحاورة « ب » مع الفيلسوفة الانجليزية :

أما جمعيتنا فكانت مؤلفة من خمس وهُنّ : السيدة الزائرة وأنا وثلاث من أفراد العائلة .

---

(١٦٥) كناية عن السلام باليد .

وكانت تلك الليلة من أحسن الصدف التى كانت تتمناها السيدة الزائرة ، لأنها كانت جامعة عددا كبيرا من الأقارب ، وهو ما كانت تلك السيدة تودّ مشاهدته !

ولما أعيانا السير على القدمين دخلنا إلى « كشك » فى حجم القاعة محاط من أطرافه بالنوافذ والشبابيك ، وألقينا فيه عصا التسيار .

ثم أقبلت سائر « الخواتين »[١٦٦] ودخلنا إلى هذا الكشك وأخذنا معا بأطراف الأحاديث .

وقد جلست السيدة الزائرة – وأنا معها – تجاه النافذة القائمة فى الوسط ، وكانت المياه التى تتدفق من شلالات الحوض الكبير القائم بإزاء الكشك تطرب الآذان بأصوات خريرها وتكسرها ، وحَبَابها المنتشرة[١٦٧] فى الحوض كقطع الماس تمثل منظرا لطيفا جدا .

وكان محل جلوسنا وموقعه جميلا للغاية ؛ فإننا فضلا عن مشاهدة الجنينة والحوض كنا نشاهد البحر من وراء الجنينة لكن ما أدراك ما ذاك البحر !

إنما هو البحر الذى كان يتراءى للعين كأنه من صفائح الفضة واللجين بما انتشر فوقه من أضواء النور المنبعثة من قمر الليل ، بل البحر الذى تغزلت به الشعراء فوصفوه بأشعارهم وصفا لا يحتمله المقام ، وكان فى تلك الليلة ساكنا كل السكون ، والهواء كان يهب صحيحا فيعود عليلا بأرجاء الأزهار ، وكانت السماء صافية ، والأفق خاليا من الكدورة فكنا لا نعرف أين نوجه الأنظار فى تلك الليلة البديعة ؟!

---

(١٦٦) جمع خاتون : وهى المرأة الشريفة . كلمة أعجمية .

(١٦٧) حَبَابُ الماء : فقاقيعه الناشئة عن انصبابه وتكسره .

أنوجهها إلى البحر الذى كان صفحة من لجين[١٦٨]، أم نوجهها إلى الأجرام[١٦٩] السماوية التى كانت تلمع وتضىء فى ذاك الفضاء عيانا كغادة حسناء ؟!

أم نوجهها إلى البدر المنير الذى كان يفوقها ضياء ونورا، ولألأةً ؟!

أم نوجهها إلى الحصيات الصغيرة التى كانت تلمع وتبرق فى الجنينة من انعكاس البدر فتمثل دمالج[١٧٠] من الماس!

لا جرم أن تلك المناظر كانت تحير المرء فلا يهتدى إلى أحسنها

على أن السيدة الزائرة قد وجهت أنظارها إلى أعلى فأرسلت عينيها فى فضاء السماء،

وكانت هذه «الخاتون» العالمة بـ «فن الهيئة والهندسة» قد طبقت دروسها على خريطة العالم بما استفادته تلك الليلة من لمعان السماء،

فبعد سكوت مستطيل صرفته فى النظر إلى هاته المناظر التفتت إلى قائلة:

هل لكِ إلمام بفن الهيئة ؟

←

(١٦٨) لجين: فضة.
(١٦٩) الأجرام: جمع جِرْم والمقصود بها النجوم.
فهى التى تراد من قولنا: الأجرام الفلكية.
(١٧٠) الدمالج: جمع دُمْلج وهو السّوار يحيط بالمعصم.

في علم الهيئة

هل لكِ إلمام بفن الهيئة[١٧١]؟

قلت : قليل جدا .

قالت : أيمكن لك أن ترى « كوكب القطب[١٧٢] الشمالى » ؟

قلت : نعم . إن رأس « الدب الأصغر[١٧٣] » يُرى من ورائنا .

قالت : أيمكن لك التمييز بين الأبراج ؟

قلت : إن القمر بدر ، وكثير اللمعان ، وفى ظنى أن ذلك متعذر علينا ، وعلمى فى هذا الفن ناقص جدا فهل لك أن تلذى سمعى ببعض التفصيلات عن هذا العلم الجليل ، فأكون لك من الشاكرات !

قالت : أجل ، مع المنة .

---

(١٧١) علم الهيئة : علم الفلك وهو علم يبحث عن أحوال الأجرام السماوية وعلاقة بعضها ببعض . ومالها من تأثير فى الأرض .

(١٧٢) القطب : طرف محور الأرض ، وهما قطبان : القطب الشمالى والقطب الجنوبى عند الجغرافيين . أما عند الفلكيين فهو نجم بين الجدى والفرقدين تبنى عليه القبلة .

وقيل هو كوكب بين الجدى والفرقدين يدور عليه الفلك لا يبرح مكانه . شبه بقطب الرحى . والقطبان السماويان : نقطتا تقاطع محور الأرض والكرة السماوية ، وهما : شمالى وجنوبى . ويقع الأول على أقل من درجة الجدى أو النجم القطبى . المنجد .

(١٧٣) الدب الأكبر ، والدب الأصغر : الكبرى والصغرى من بنات نعش . و« بنات نعش » الكبرى سبعة كواكب تشاهدها جهة القطب الشمالى . وبقربها سبعة أخرى تسمى بنات نعش الصغرى . والنجمة التى رسمت كبيرة هى النجمة القطبية التى يستدل بها على نقطة القطب الشمالى .

ثم أخذت السيدة الزائرة تنقل إلىّ أسماء السيارات[174]، ومواضعها ودورانها وأبعادها وتبدلات أشكالاها بصورة بالغة حد الإتقان والكمال فى بسط محبب وحسن بيان حتى دهشت لتلك القوة الحافظة التى وهبتها ؛ لأنه مهما حصل المرء من العلم والمعرفة فليس من السهل أن يحفظ فى ذهنه أبعاد النجوم بعضها عن بعض ، ويذكرها بدقة تامة !!

وليس ذلك فقط ، بل كانت تروى لى بإيضاح وتفصيل أقوال الفلاسفة والحكماء المتعلقة بفن الهيئة ومقدار ما تقلب عليهم من تغيّر الآراء والأفكار[175]، وكيف أن المتأخرين قد جرّحُوا أقوال من تقدمهم ، وكيف أن الذين جاءوا على إثر هؤلاء المتأخرين قد عادوا إلى تصويب واستحسان كلام الأولين والتصديق عليه ، وأخذت تشرح شرحا مستوفيا عن أوضاع النجوم والسيارات ، ومع أنها كانت

---

(١٧٤) الكوكب ، أو الكوكب السيار ، فى الاصطلاح هو الجسم السماوى الذى لا ينير من ذات نفسه ، فهو ليس من نار ، وإنما يعكس نور غيره . مثال ذلك : الزُهَرة ، والمريخ والمشترى ، وكل نورها يأتينا بالانعكاس من نور الشمس . أما النجم فهو الجسم السماوى ذو النار ، يُذْكيها هو ، ولا يستعيرها . مثال ذلك الشمس . وهذه النجوم التى تراها مبعثرة فى السماء تزينها بالليل ، ولكل منها موضع بين سائر النجوم فى رأى العين ثابت . ا . هـ [مع الله فى السماء للدكتور أحمد زكى] .

(١٧٥) يدل على ذلك ماجاء فى كتاب : « الكون فى الدقائق الثلاث الأولى » للدكتور الموصلى حيث يقول فى مقدمته :

لقد كان الإنسان يعتقد أنه مركز الكون بأرضه ، ثم اكتشف بدراساته العلمية أن الأرض هى مجرد تابع للشمس ، ثم اكتشف أن الشمس ماهى إلا نجم من آلاف الملايين من النجوم فى مجرتنا ، ثم هاهو ذا يكتشف أن مجرتنا بحجمها الهائل ماهى إلا واحدة من عدد لا نهائى من مجرات أخرى شبيهة ، وتأكد للإنسان أنه هو وأرضه وشمسه وحتى مجرته كلها إنما تمثل جزءا صغيرا جدا من كون فسيح لا يمكن الإحاطة به من حيث الحجم .

فى المحاورة الأولى تلقى علىّ كثيرا من الأسئلة صرت الآن أسألها عن عدة أشياء .

أما هى فإنها بعد إذ لم يبق فى كنانة علمها منزع ، ولم تَضِنَّ علىّ بإيضاح وبيانٍ مَّا حوّلَتْ نظرها وأخذت تشرح لى بتفصيل عن عكس القمر فى البحر ، وعن كيفية ضيائه ، وأسباب لمعانه .

ثم وجهت نظرها إلى الجُنَيْنَة ، وصارت تبحث فى المعادن والنباتات ، وتأتى عليها بما يحتاج إليه المقام من الإيضاحات ، وكانت تتكلم عن هذه الفنون بلذة تفوق لذة العاشق الذى يتحدث بذكر عشيقته ! وتظهر على سيماها آثار الرقة واللطف بادية فيها دلائل الكياسة والظّرف .

ولا غرابة فى ذلك ؛ لأنها إنما كانت تتحدث بذكر العلوم الحكمية التى كانت تعشقها .

وبعد هنيهة ألقت نظرها على الأشجار الكبيرة وكانت تخمن مقادير أعمارها .

فقلت لها : إننى أريك شجرة معمرة أكثر من أشجار الفستق ، ثم أخذتها بيدها حتى وصَلْتُ بها إلى شجرة ضخمة ، وأريتها إياها فتقربت إليها وبعد أن دققت فيها تدقيقا تاما قالت :

أيتها السيدة ، إن هاته الشجرة هى أقدم من العثمانيين فى « الآستانة » وهى باقية من زمن الأمبراطورية(١٧٦)؛ لأن وصولها إلى

---

(١٧٦) سقطت القسطنطينية على يد السلطان التركى العثمانى : محمد الثانى فى ٢٩ من مايو سنة ١٤٥٣م بعد أن دافع عنها حتى الموت آخر أباطرتها قسطنطين التاسع .

وقد كان هذا الحوار مع الكاتبة التى ولدت فى أكتوبر عام ١٨٦٢م .

ولقد ظل الغربيون – على مر الزمان – يشعرون بمرارة الهزيمة كلما ذكروا القسطنطينية أو الآستانة أو استانبول . التى كان اسمها « إسلام بول » فحرفت .

=

هذا الطول يحتاج إلى عدة أعصر[١٧٧]، ثم عدنا بعدئـذ إلى « الكشك » فاستأنفت السيدة حديثها العلمى وأخذت تلقى علىّ ضروبا من الحكمة ، ثم قالت :

أخشى أن أكون قد أورثت لك مللاً بكلامى فى هذا الموضوع ، ولكن ما حيلتى وأنا أرى فى مثل هذه المحاورات لذة كبرى ما بعدها من لذة ؟!

قلت : ماذا تقولين أيتها السيدة ؟! .. إننى كثيرا ما كنت أود أن أُبدِىَ لك شكرى لما استفدته فى هذه الليلة من ألفاظك البليغة ، وعلومك العالية إلا أننى خشية من قطع الحديث عليك ، توقفت عن تأدية الشكر ، بل لم أتجرأ أن أبديه ، فأنا أهنئك بهذه المنزلة العالية ، وأشكر لك عنايتك ، فقد استفدت كثيرا بآدابك .

قالت : أنا أطوف الجهات ، وأذهب إلى المراقص ، وليالى الفرح والمسرات ، ولا أحب الخروج عن دائرة العادات[١٧٨]؛ لكن لا بِنِيّةِ إظهار زينتى ، وعرض نفسى على الأنظار ، كما تفعل أكثر النساء ،

= ولم يسترح لهم بال إلا بعد أن تكالبوا على ممتلكات الخلافة والدول التى كانت تبسط سلطانها عليها ، وكانوا يسمونها « تركة الرجل المريض » ، وراحوا يتقاسمون تلك التركة ويحتلون أراضيها ! بعد أن ضعفت وكثر شانئوها !!

وها هى ذى تلك السائحة لا تنسى أبدا عهد الامبراطورية !! وتجد فى الأشجار ما يذكرها بعهود مضت قبل مولدها !!

(١٧٧) يقاس عمر الأشجار بوسائل علمية كثيرة .

(١٧٨) على الإنسان ألا يكون أسير العادة حتى لا يقع فى المكروه ، ويحدث له ما لاتحمد عقباهُ !

أما هذه السائحة فهى فيلسوفة وباحثة اجتماعية - تريد أن تدرس وتتأمل عن قرب عادات الشعوب وتقاليدها ... وكأنما تدين بمذهب من يقول :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه =

فى المحاورة الأولى تلقى علىّ كثيرا من الأسئلة صرت الآن أسألها عن عدة أشياء .

أما هى فإنها بعد إذ لم يبق فى كنانة علمها منزع ، ولم تَضِنَّ علىّ بإيضاح وبيانٍ مًّا حوّلَتْ نظرها وأخذت تشرح لى بتفصيل عن عكس القمر فى البحر ، وعن كيفية ضيائه ، وأسباب لمعانه .

ثم وجهت نظرها إلى الجُنَيْنَة ، وصارت تبحث فى المعادن والنباتات » وتأتى عليها بما يحتاج إليه المقام من الإيضاحات » وكانت تتكلم عن هذه الفنون بلذة تفوق لذة العاشق الذى يتحدث بذكر عشيقته ! وتظهر على سيماها آثار الرقة واللطف بادية فيها دلائل الكياسة والظَّرف .

ولا غرابة فى ذلك ؛ لأنها إنما كانت تتحدث بذكر العلوم الحكمية التى كانت تعشقها .

وبعد هنيهة ألقت نظرها على الأشجار الكبيرة وكانت تخمن مقادير أعمارها .

فقلت لها : إننى أريك شجرَة معمرة أكثر من أشجار الفستق ، ثم أخذتها بيدها حتى وصَلْتُ بها إلى شجرة ضخمة ، وأريتها إياها فتقربت إليها وبعد أن دققت فيها تدقيقا تاما قالت :

أيتها السيدة ، إن هاته الشجرة هى أقدم من العثمانيين فى « الآستانة » وهى باقية من زمن الأمبراطورية(١٧٦)؛ لأن وصولها إلى

---

(١٧٦) سقطت القسطنطينية على يد السلطان التركى العثمانى : محمد الثانى فى ٢٩ من مايو سنة ١٤٥٣م بعد أن دافع عنها حتى الموت آخر أباطرتها قسطنطين التاسع .

وقد كان هذا الحوار مع الكاتبة التى ولدت فى أكتوبر عام ١٨٦٢م .

ولقد ظل الغربيون – على مر الزمان – يشعرون بمرارة الهزيمة كلما ذكروا القسطنطينية أو الآستانة أو استانبول . التى كان اسمها « إسلام بول » فحرفت . =

هذا الطول يحتاج إلى عدة أعصر[١٧٧]، ثم عدنا بعدئـذ إلى « الكشك » فاستأنفت السيدة حديثها العلمى وأخذت تلقى علىّ ضروبا من الحكمة ، ثم قالت :

أخشى أن أكون قد أورثت لك مللاً بكلامى فى هذا الموضوع ، ولكن ما حيلتى وأنا أرى فى مثل هذه المحاورات لذة كبرى ما بعدها من لذة ؟!

قلت : ماذا تقولين أيتها السيدة ؟! .. إننى كثيرا ما كنت أود أن أُبدِىَ لك شكرى لما استفدته فى هذه الليلة من ألفاظك البليغة ، وعلومك العالية إلا أننى خشية من قطع الحديث عليك « توقفت عن تأدية الشكر ، بل لم أتجرأ أن أبديه ، فأنا أهنئك بهذه المنزلة العالية ، وأشكر لك عنايتك ، فقد استفدت كثيرا بآدابك .

قالت : أنا أطوف الجهات ، وأذهب إلى المراقص ، وليالى الفرح والمسرات ، ولا أحب الخروج عن دائرة العادات[١٧٨]؛ لكن لا بِنِيّةِ إظهار زينتى ، وعرض نفسى على الأنظار ، كما تفعل أكثر النساء ،

= ولم يسترح لهم بال إلا بعد أن تكالبوا على ممتلكات الخلافة والدول التى كانت تبسط سلطانها عليها ، وكانوا يسمونها « تركة الرجل المريض » ، وراحوا يتقاسمون تلك التركة ويحتلون أراضيها ! بعد أن ضعفت وكثر شانئوها !!

وها هى ذى تلك السائحة لا تنسى أبدا عهد الامبراطورية !! وتجد فى الأشجار ما يذكرها بعهود مضت قبل مولدها !!

(١٧٧) يقاس عمر الأشجار بوسائل علمية كثيرة .

(١٧٨) على الإنسان ألا يكون أسير العادة حتى لا يقع فى المكروه ، ويحدث له ما لا تحمد عقباهُ !

أما هذه السائحة فهى فيلسوفة وباحثة اجتماعية – تريد أن تدرس وتتأمل عن قرب عادات الشعوب وتقاليدها ... وكأنما تدين بمذهب من يقول :

أعرف الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

ولا أكتسى بالألبسة الحريرية الرفيعة الأثمان بقصد العظمة والفخر . وإنما ألبسها لأجل أن يلتذ سمعى بصدى اهتزاز أمواجها ، وحسيسها[179] فى الهواء متخذة ذلك بمثابة اختبار لدروس الحكمة التى تلقيتها .

ماذاأقول عن أولئك الناس الذين يدخلون إلى قاعات المراقص فتأخذهم[180] نشوة الحظ والسرور من ضياء القناديل ، والشموع المتلألئة فيها ، ومن لمعان الثريات وأنوارها المنعكسة ، ولكنهم لا يعلمون شيئا من أسباب ذلك الحظ ، ولا يفقهون ماهية تلك الأشياء التى تبعثهم على هاتيك المسرات !

لعمرى إنهم لو أحاطوا علما بها لتمثلت لهم فيها حكمة الله بأجلى بيان ، ولازدادوا اندهاشًا بقدرته وقوته التى حيرت بنى الإنسان ، ولاشتغلوا بذكره وتسبيحه أكثر من انشغالهم بالملاهى !

ثم إننى أرى فرقا بين الحجارة الماسية[181] التى أصفها وبين حجارة الثريات العلوية ، وعندى أن هذا الفرق إنما هو ناشىء عن أن الحجارة الماسية بواسطة انعكاس ضياء القناديل والشموع عليها تمثل

= لكن صاحب الرأى المؤمن لا يكون مع الناس موافقا لعاداتهم إن أحسنوا أحسن ، وإن أساءوا أساء !

وعلى كل فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ! وما أكثر اللاتى يحمن حول الحمى دون أن تكون لديهن فلسفة ، بل ما أكثر اللاتى يقعن فيه !

(١٧٩) حسيسها : صوتها الخفى .

(١٨٠) تبهرهم وتستولى على لُبهم .

(١٨١) الألماس : حجر كريم شديد الصلابة ، يونانية .

للعِيَان الألوان السبعة الأصلية[١٨٢] بمنتهى الرقة واللطف والظرف مالا يوجد فى الحجارة البلورية !!

ويشهد الله أننى لا أنظر إلى النساء فى تلك الليالى نظرة الحاسدة لجمالهن ، الباحثة عن قصورهن ، الراغبة فى كشف عيوبهن ؛ بل ربما كنت أدقق فى أكثرهن جمالاً[١٨٣] وفى أخلاق أطوار الفتيات المعصومات لأنقش هذا الجمال ، وهاته الأطوار فى مخيلتى ، وأتخذ الخيال الذى أرسمه قاعدة أتصورها فى كل وقت .

إننى أنظر إلى قاعات « الميس » فى المراقص ، وأتفرج على الألعاب ، ولكن لا لأقف إلى جانب أحد الذين يربحون ، ولا لتأخذنى الشفقة على من يخسرون ؛ لأنهم إنما يخسرون أموالهم بطيب خاطر منهم ، بل أدخلها لأنظر مع التعجب تلاعب هذا المعدن الأصفر[١٨٤] بالألباب ! واستهزاءه بأولئك الذين ينفقونه جُزافاً على مذابح شهواتهم وكأنه لا قيمة له ؛ مع أنهم لم يجمعوه إلا بشق الأنفس .. لم يجمعوه إلا بعرق الجبين .. لم يجمعوه إلا بالمتاعب والمشقات التى تقرض العظم قبل اللحم ! .. لم يجمعوه إلا بإهراق الدماء ، فهم يلعبون به ، لكن بعد أن يلعب بألبابهم وأرواحهم وشرفهم !!

أليس من موجبات الدهشة والاستغراب أن أولئك الذين يُتْلفون أنفسهم فى سبيل الحصول على واحد من هذا المعدن يستبدلون تعبهم ، ويعتاضون عن مشقاتهم بساعة الحظ .

---

(١٨٢) الطيف : صورة تحدث عن مرور الضوء الأبيض فى « منشور » فينحل إلى ألوان بسيطة ملونة هى حسب ترتيبها فى الطيف : الأحمر ، البرتقالى ، الأصفر ، الأخضر ، الأزرق ، النيلى ، البنفسجى .

(١٨٣) لأقف على بديع صنع الله الذى خلق هذا الجمال .

(١٨٤) إنها تحكم عقلها وتدع عواطفها جانبا ... فى رحلة البحث عن الحقيقة .

قراءة العيون !

ما من شيء حَرِيٍّ بالفرجة أكثر من مناظر الجمعية فى المراقص وليالى الأفراح ، والتدقيق بنظر الأفراد المجتمعين الذى يتبادله كل منهم(١٨٥).

بل ما من لذة تضاهي لذة مشاهدة الأنظار التى يتسارقها الفتيان العشاق الذين يرهبون آباءهم ويتحببون لأمهاتهم ، ويتضايقون فى الازدحام ؛ فإن العيون وهى منافذ القلوب تغنى عن لسان المقال(١٨٦).

أما إذا اجتمع الجمال فى العيون ؛ فإن الكلمات التى ترسلها إلى الأفهام لتسمو وتعلو مكانة وقبولا على الألفاظ التى تخرج من بين الأسنان الدرية والشفاه المرجانية ؛ إذ أن الكلمات التى تصدر من الفم لا تكون بجملتها صحيحة وجوابا ، وإنما تصدر مَوْزُونة مموهة بالكذب . ولكن العيون بعيدة عن التمويه منزهة عن التصنع والتقليد .

فبينما يتكلم « الفم » بالمحال إذ تظهر الحقيقة من مجرد النظر إلى العينين !!

نعم إنه لا حاجة للسؤال فى مثل هذه الجمعية عن أرباب الدسائس ، والكذبة ، والمنافقين ؛ فإن العيون تكشف الخفايا ، وتشير إلى كلام المحبين والأعداء والوالدين والوالدات والأولاد .

---

(١٨٥) فلها خبرة بلغة العيون ، تساعدها فى رحلة البحث فراستها . وتصور المراقص وليالى الأفراح عند الغربيين وموقفها منها .

(١٨٦) كأنى بها ترد على نفسها وتعطينا مثالا للاختلاط وآثاره السيئة ، ومساوئه المدمرة من رقص وشرب ، وعشق وإسلام قيادٍ للشهوة ! وبضدها تتميز الأشياء !

ومن عجب أننا رحنا نقلدهم فى أسوأ ما لديهم فدب ديب الفساد فى الأسر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

إن حماية الآباء ، وشفقة الأمهات وهيام العشاق ، ومحبة الأصدقاء ، وغرض الأعداء . كل ذلك يعلم من العينين والعيون تَطّلع تمام الاطلاع على جملة أشياء ، لا يستطيع الإنسان أن يسأل عنها بلسانه ، ولقد صدق القائل :

« إن العيون هى ترجمان القلوب » .

فلما وصلت السيدة إلى هذا الحد من البيان التزمت جانب الصمت ، ثم وضعت مرفقها على النافذة ، وأسندت رأسها بيديها كأنما كانت تناجى الأرواح ومع أنها قطعت حديثها كنت أُصغى إليها كأنها لا تزال تتكلم .

دروس الحكمة :

وبعبارة أقرب إلى الحقيقة : إن أذنىّ كانتا راغبتين فى الاشتغال بعكس خيال هاتيك الألفاظ الدرية ، كأنهما لا تريدان أن تبعدا عن عينٍ تَصَوُّرِهما ذلك الخيال الفتان ، وأن تغلقا دون استماع خطبتها المملوءة حكمة وآدابا !!

أليس أن ما تجملت به هاته العالمة العالية الأخلاق من الحسن والظرف إنما هى صحيفة جميلة لكتاب الحكمة الدال على حكمة وقدرة الخالق القادر الحكيم ؟!

أما أنا فقد توغلت فى مطالعة تلك الصحيفة التى فتحت أمامى .

إن البعض إذا فهموا أن فى ربات الجمال قصورا ينصرفون عنهن ، ولا ينظرون إليهن ولكن بعد أن يفكروا مَلِيًّا فى هذا القصور الذى لم نعرف ماهيته يتمكنون من الوصول إلى إدراكه بما آتاهم الله من المعرفة التى هى سر من أسرار حكمته المستورة عنا . وهكذا كانت

السيدة الزائرة فإن الله قد حباها بنعمته ولطفه فمنحها الجمال واللطف ، وزينها بالأدب والعلم . ولم يحرمها من هذه الجاذبية التي تسترق الألباب .

أليست تلك الجاذبية[١٨٧] هى التى تجعل القبيح محبوبا كالجميل ؟! ولكن ما تعريف الجاذبية ؟

لعمرى إنها لا تظهر للعيان ، ولا تمثل إلا بالأذهان ، ليس لها شكل معروف ، ولا جسم موصوف ، فالبصيرة تدركها ، ولا تنظرها الأبصار ، وتعشقها القلوب قبل الأفكار !!

وكما أنها بادية فى الوجه والهيئات فهى أبدا ممثلة فى الكلمات ظاهرة فى الأصوات .

وبينما كنت سابحة فى فضاء التصور بهذا الهيكل العجيب التفتت إلىّ هذه السيدة وقالت :

بأى شيء تفكرين ؟ ولماذا أراك ملتزمة جانب الصمت ؟

فقلت : إننى أفتكر بك كما تنظرين . لا جرم أنك قد وقفت على جميع الأشياء ، وأمعنت فيها نظر التدقيق ، فعرفت حكمتها ، ففى حين أنك أحطت بها علما يقتضى حتما أن تكونى صرفت وقتا طويلا فى النظر إلى المرآة ، لأجل التدقيق بجمالك ومحاسنك ، لأنك لست بمحتاجة إلى مثال آخر فى مشاهدة الجمال !!

قالت : أجل ، إنى غير ناكرة ، وأعلم قدر إحسان الخالق - سبحانه - بالحسن والملاحة التى خصنى بها ، وشاكرة هذا الإحسان ، ولست كبعض النساء اللاتى يتظاهرن بأنهن لا يعرفن

---

(١٨٧) الجاذبية : الحالة التى يجذب بها صاحبها غيره . يقال : فلان له جاذبية . يستميل غيره إليه .

أنفسهن أهن جميلات أم لا ؟! وهن يقصدن أن يكن معروفات بأنهن أكثر جمالا . ولا أحسد اللاتى هن جميلات أكثر منى !

كما أننى أعرف قصورى أيضا . فانظرى أيتها السيدة هلى ترين تناسبا بين ما أوتيته من الجمال ، وبين هاتِهِ الأيدى والأقدام ؟!

إن كبرهما إنما هو نقص محض[١٨٨]، ولكننى لست بآسفة على ذلك ، بل أنا ممتنة ؛ إذا لو لم يكن بى هذا القصور فربما كان استولى علىّ الغرور ، ولكنت لا أدرك أن الغرور غير لائق بالعبيد !

على أن قصورى قد عرفنى أن العبد لا يمكن أن يكون بلا قصور ، وأنه لا يليق بنا الغرور مع هذا النقص[١٨٩]، ولأجل ذلك لا أشكو مما أراه من النقص فى يدىّ ورجلىّ وذلك لأكون على الدوام مسرورة[١٩٠]!

لا جرم أن « السيدة الزائرة » تتكلم بالصواب « لأن يديها ورجليها لم تكن متناسبة مع مجموع حسنها ، ولكننى لا أعلم إذا كان يتيسر لكل عبد أن ينظر قصوره ، ويكسر عظَمَته وكبرياءه !!

أما إذا اجتمع العلم مع علو الأخلاق فيتولد من ذلك إنسان كامل كتلك « السيدة الزائرة »[١٩١].

ثم قالت : وفى حين أن الناس تبدو مظاهر عجزهم وضعفهم لأعينهم بكثير من الدلائل تراهم ينسون أنفسهم ويجترئون على الغرور

(١٨٨) بالنسبة لمن ينظر نظرة عَجْلى . ولو فكر لعرف أن وراء ذلك حكمة جليلة !

(١٨٩) فالكمال لله وحده .

(١٩٠) الشعور بالنقص أول الكمال كما قيل .

(١٩١) فالجمال جمال العلم والأدب ، وجمال النفوس أسمى وأحلى ! يصنع الصانعون وردا ولكن : وردة الروض لا تضارَعُ شكلا !!

كأن لم تكن تلك الأدلة شيئا مذكورا ، مع أننا إذا خفضنا رءوسنا إلى الأسفل « ورفعناها إلى الأعلى نشاهد عظمة الله – جلّ جلاله – ، وضعفَ ذواتنا !

نحن لا يلزمنا أن نتوغل فى أغوار نفوسنا ، ولا أن نصعد فى درجات الأوْج الأعلى ، وإنما علينا أن ننظر إلى البحر والسماء ، فما هى المناظر والمظاهر التى تجلوها لنا السماء ؟

أليست تقول لنا بلسان حالها : إنكم عاجزون عن مشاهدة أقمارى ، والوصول إلى معرفة أسرارى ؟! لماذا لا نسبح فى الأجرام السماوية التى فهمنا أن كلا منها إنما هو عالم مستقل ؟! ألم نهتم بذلك كثيرا ؟!

بلى لقد اخترعنا المنظار زعما منا أننا سنوفق إلى الوصول إلى تلك الأجرام(١٩٢)، فخاب الظن ، وكنا إذ ذاك فى حالة الغرور ولكن كان كل اقتدارنا أن بلغنا بعد الجهد الجهيد والسعى المتواصل

---

(١٩٢) كان ذلك منذ أكثر من مائة عام قبل تجارب غزو الفضاء .

فقد بدأت سفن فضاء تنطلق من الأرض وتدور حولها « .. سفن فضاء تنطلق من الأرض إلى القمر .. والآن سفن فضاء تنطلق من الأرض إلى المريخ وربما – غدا – تكون سفن فضاء تنطلق من الأرض إلى الكواكب الأخرى . ولم يقف الأمر بالإنسان عند حد التطلع والتأمل فى أسرار هذا الكون الغامض الذى يحيط به ، فانطلق يدرس هذه السماء ونجومها وأماكنها ، والقمر ومواعيد ظهوره ، وأشكاله التى تتغير مع كل شهر حتى تضاريسه المتباينة كما تطلع الإنسان أيضا إلى كواكب المجموعة الشمسية التى أسماها علماء العرب بالكواكب السيارة لأنها هى الوحيدة التى تسير فى السماء – تدور فى مدارات حول الشمس – أما النجوم فهى فى مكانها لا تتحرك .

لقد أصبح الإنسان أكثر تأملا فى أسرار الخالق التى أودعها كونه العظيم ، وما عمليات كشف الفضاء إلا امتداد لتطلع الإنسان لمعرفة الكون ودراسته وفهمه بأساليب علمية ووسائل بالغة التطور والتعقيد لم تشهدها الإنسانية عبر تاريخها الطويل » . د . فاروق الباز . الفضاء ومستقبل الإنسان .

للصعود إلى عدد معلوم من الكيلو مترات . هذا ما فهمناه ، وقد هبطنا من ذاك العلو بصورة هائلة أرتنا الموت عيانا ، وسمعنا كلمات التهديد تخاطبنا قائلة بلسان الحال : إنكم غير مأذونين أن تصعدوا إلى أعلى من هذا الحد ، وأنتم لم تخلقوا لتعيشوا فى هذا الفضاء ، فإما أن تعودوا من حيث أتيتم ، وإما أن ترضوا بالموت صاغرين حتى إذا أخذ الدم يتدفق من مسامّنا ، ورأينا هاته الحال المدهشة أجبرنا على الرجوع !

أفلم يكن ذلك من الغرور المحض(١٩٣)؟!

قلت : لقد نطقتِ بالصواب ، على أن صاحب هذه الأفكار يجب أن يكون نظيرك من ذوى الأخلاق الحسنة والعلم الواسع ؛ إذ لا يختلف اثنان أن الإنسان أينما وجه التفاته ، وفى أى شىء حصر فكره وتأمله تتجلى له عظمة الله ووحدانيته عيانا .

ولكن هل تحسبين أن أى الناس ينظر إلى ذلك بهذا النظر المجرد ، وأنه يسر فقط من لون السماء الصافى ولمعان الكواكب ، وسكون البحر ، ونور القمر وضياء الشمس ، فيكتفى بهذا السرور ليس إلا ؟!

---

(١٩٣) كأنما تشير الكاتبة إلى قول الله تعالى : ﴿ يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان • فبأى آلاء ربكما تكذبان • يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ﴾ [الرحمن : ٣٣ - ٣٥] .

وحدانية الله

وفي كل شيء له آية :

قالت :

لا جرَم[194] أن الإنسان كيفما التفت ، وأينما وجّه نظره يتمثل لدى عينيه عظمة الله ووحدانيته .

قلت : ولكنك تعلمين أن أكثر مذاهب النصارى يعتقدون بالتثليث ! فلا أدرى كيف يمكن ذلك مع الوحدانية ؟

قالت : من المعلوم أن المسائل الدينية مستندة إلى الرواية لا إلى أدلة عقلية[195]! أما أنا فقد تفكرت كثيرا فى مسألة التثليث فلم أتمكن من توفيقها على العقل والحكمة ، ولأجل ذلك أعتقد بوحدانية الله !

---

(١٩٤) حقا .

(١٩٥) فى كتاب « أشعة خاصة بنور الإسلام » قدم الشيخ عبد الحليم محمود لمؤلفه الذى ترجم له كتاب « محمد رسول الله » وجاء فى مقدمة الترجمة تحت عنوان :

« صحة الأناجيل » : لقد أعاد قراءة الأناجيل من جديد فرأى فيها مايتنافى مع الصورة المثلى للإنسان الكامل ووجد أن هناك نصوصا تبعث فى النفس الشك فى صحة الأناجيل التى بين أيدينا . وأداه ذلك إلى البحث فى صحة الأناجيل ، وفى قيمتها من الناحية التاريخية ، وكانت نتيجة بحثه : أنه لاشك أن الله قد أوحى الإنجيل إلى عيسى – عليه السلام – بلغته ولغة قومه ، ولا شك أيضا أن هذا الإنجيل قد ضاع واندثر ، ولم يبق له أثر ، أو أنه باد ، أو أنه قد أبيد .

ولهذا قد جعلوا مكانه « توليفات » أربعا مشكوكا فى صحتها وفى نسبتها التاريخية كما أنها مكتوبة باللغة اليونانية ، وهى لغة لا تتفق طبيعتها مع لغة عيسى – عليه السلام – الأصلية التى هى لغة سامية ، لذلك كانت صلة السماء بهذه الأناجيل اليونانية أضعف بكثير من صلتها بتوراة اليهود .

قلت : إذن يقتضى أن تكونى على « مذهب الأبيونيين »(١٩٦)؟!

قالت : كلا . إن هذا المذهب قد انقرض؛ فإن مجمع « نيقية »(١٩٧) قد محاه محواً ؛ فالتثليث عند النصارى إنما هو بمثابة سر لا يدركه العقل ، فليس لهم إلا التسليم والاعتقاد .

= ورأى فى النهاية : « أن الديانة الكاثوليكية لا تتحمل البحث والمناقشة ، فقد أظهرت الأدلة العديدة سواء أكانت أخلاقية أم تاريخية أم علمية أم لغوية أم بسيكولوجية أم دينية – أن الكاثولوكية ملأى بالأغلاط الواضحة » ولم يمكنه إلا أن يقول ما قال القديس « أوغسطين » مما يعتبر شعار كل مسيحى : « إننى أؤمن بذلك : لأن ذلك غير معقول » ا . هـ . « محمد رسول الله ص ١١ » .

(١٩٦) اجتازت العقيدة المسيحية مرحلتين أساسيتين :

المرحلة الأولى إلى « مجمع نيقية » سنة ٣٢٥م .

والمرحلة الثانية من مجمع « نيقية » إلى الوقت الحاضر . وكانت المسيحية فى المرحلة الأولى ديانة التوحيد – كما ينبئنا القرآن – تدعو إلى عبادة إلٓه واحد ، وتقرر أن المسيح إنسان من البشر أرسله الله تعالى بدين جديد ، وشريعة جديدة كما أرسل رسلا من قبل .

ولكن لم تمض بضع سنين على رفع المسيح حتى أخذت مظاهر الشرك والزيغ والانحراف تتسرب إلى معتقدات بعض الفرق المسيحية ، وانقسم المسيحيون إلى طائفتين : طائفة جنحت عقائدها إلى الشرك بالله ، وطائفة ظلت عقائدها محافظة على التوحيد ، وضمت كل طائفة من هاتين الطائفتين تحت لوائها فرقا كثيرة . وكان من الفرق التى ظلت على التوحيد : فرقة « أبيون » ، وفرقة « بولس الشمساطى » وفرقة « أريوس » وهم الأريوسيون وقد انقرض مذهبهم بعد أن حكم مجمع نيقية بطرد أريوس وكفره وأصدر قرارا بألوهية المسيح .

أما « الأبيونيون » فكانت فرقتهم تنكر ألوهية المسيح وتعتبره مجرد بشر رسول وكان لها إنجيل خاص مدون بالآرامية وقد أوشكت فرقتهم على الانقراض بعد مجمع نيقية .

(١٩٧) تدعيما لعقيدة الثالوث وإبرازا لمبادئها قام كبار أساقفة المسيحية بعقد مجامع دينية فيما بينهم سميت بالمجامع المقدسة أولها مجمع نيقية سنة ٣٢٥م أتموا فيها وضع أسس المسيحية الجديدة وأهمها قانون الإيمان المسيحى .. الإيمان الثالوثى الذى يردده الإخوة المسيحيون داخل الكنائس خلف القسس . =

خلو الإنجيل من نص صريح يتعلق بالتثليث :

قلت : إن « الإنجيل الشريف » خالٍ من النص والتصريح المتعلق بمسألة « التثليث » فليس ثمّة إكراه فى الاعتقاد بشىء لا ينطبق على المعقول .

أما « مسألة التثليث » فقد ظهرت بعد « سيدنا عيسى » بأعصُر ، ولا يوجد فى الأناجيل قول يثبت ذلك !

وما هناك من « بعض التعبيرات » لا تتخذ سندا وحجة ؛ لأن « التوراة » ، و« الإنجيل » الشريفين لو ظلاكما نزلا دون أن يطرأ عليهما تغيير أو تحريف لكانا حجة على إثبات هاته الأمور !!

ومعلوم أن « الإنجيل الشريف » لا يُعرَف فى أيّةِ لغة كتب بادىء ذى بدء ؛ إذْ لا يزال ذلك مختلفاً فيه فمن المحتمل أن الوقت لم يمكن من كتابته فبقى محفوظا فى الأذهان حتى إذا رُفع سيدنا عيسى عليه السلام أدرج ما بقى مستظهراً فى أذهان الحواريين من الآيات الإنجيلية فى الأناجيل على طرز الحكاية .

وعلى ذلك فإن الأناجيل التى كتبت وهى تزيد على الخمسين عدا إنما جرى التدقيق فيها بعد ثلثمائة سنة من ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام ؛ فأبقى منها أربعة ، وترك الباق .

= ويقول القس توفيق جيد «إن الثالوث سر يصعب فهمه وإدراكه ، وإن من يحاول إدراك سر الثالوث تمام الإدراك كمن يحاول وضع مياه المحيط كلها فى كفه » .

ويقول الدكتور عبد الله دراز « إنه لا يقول بالتعدد إلا العقل القانع المتعجل الذى يقف عند أدنى مبادىء الغيب وغاياته فيرى أن وراء كل فصيلة من الظواهر الكونية مبدأ يدفعها وينظمها فيقوده ذلك إلى الاعتقاد بوجود إله للريح وإله للشعر وإله للحرب وهكذا .

أما العقول الواعية الطليقة المتسامية فإنها ترى أن خلف هذا كله قوة واحدة أسمى وأعظم ، تصرّف جميع الشئون ، فهى لا ترضى بآحاد القوانين ، ولكنها تسمو إلى قانون القوانين ، وتستشرف إلى اليد التى جمعت تلك القوانين ونسقتها .

وفى جوانب كثيرة من هاته الأناجيل الأربعة مباينات كلية يناقض بعضها البعض الآخر ، وهذا من الأمور الطبيعية ؛ لأن النصرانية ظلت ثلثمائة سنة تحت طىّ الخفاء ، وفى الوقوف على الحقيقة فى هذا المقدار من السنين إشكال لا يحتاج إلى إيضاح .

والتوراة أيضا لحقها التحريف :

قالت : ما قولك فى التوراة ؟

قلت : لا يخفى أن « التوراة » قد أحرقت ، وفقدت حينا من الزمن ، ثم كتبت عن الحفظ مجددا فمن هذه الجهة لا تفيد علم اليقين بخبر واحد .

وبين أيدينا الآن ثلاث نسخ منها يناقض بعضها بعضا ، وفى ذلك دليل كاف على أنها محرفة ؛ لأن كلام الله لا يمكن وجود التناقض فيه !

قالت : ما هى « المتناقضات » التى رأيتها فى التوراة ؟

قلت : مهلا فإننى سأجد لك فيها تناقضا مُهِمًّا .

قلت ذلك ، والتفَتّ إلى جارية كانت على مقربة منى وأشرت إليها أن تأتينى بالمحفظة الحمراء الموضوعة على المِنضدة ، فأسرعت الجارية ، وجاءت بالمحفظة المطلوبة فدفعتها إليها وقلت :

نماذج للتناقضات فى التوراة :

[١] إليك بيان التناقض : إن المدة التى مرت من خلقة آدم – عليه السلام – إلى طوفان نوح – عليه السلام – إنما هى : بمقتضى النسخة العبرانية : (١٦٥٦) . ألف وستمائة وست وخمسون سنة وبموجب النسخة اليونانية : (٢٢٦٢) . ألفان ومائتان واثنتان وستون سنة . وبموجب النسخة السامرية : (١٣٠٧) . ألف وثلثمائة وسبع سنوات .

ولما كان هذا التناقض والاختلاف فاحشا جدا كان يتعذر التوفيق بين هاته النسخ .

[٢] وبموجب النسخ الثلاث أيضا يظهر أن نوحا – عليه السلام – حين كان الطوفان – قد بلغ ستمائة من العمر .

وبحسب النسخة السامرية يلزم أن يكون نوح – عليه السلام – حين وفاة آدم عليه السلام – بالغا (٢٢٣ سنة) من العمر وهذا مردود باطل باتفاق المؤرخين .

والنسخة « العبرانية » مع النسخة « اليونانية » – أيضا – تكذب ذلك ؛ لأن ولادة سيدنا نوح بموجب النسخة اليونانية إنما كانت بعد سبعمائة واثنتين وثلاثين سنة .

ثم إن المدة من الطوفان إلى ولادة إبراهيم – عليه السلام – هى : (٢٩٢ سنة) بمقتضى النسخة العبرانية ، و(١٠٧٢) بموجب النسخة اليونانية ، و(٩٤٢) بحسب النسخة السامرية . وهذا اختلاف فاحش أيضا !

[٣] ومما تقدم يظهر أنه بحسب النسخة العبرانية كانت ولادة إبراهيم – عليه السلام – بعد الطوفان بمائتين واثنتين وتسعين سنة حالة كونه قد جاء مصرحا فى « الآية الثامنة » من « الباب التاسع » من « سفر التكوين » أن نوحا – عليه السلام – قد عاش ثلثمائة وخمسين سنة بعد الطوفان .

فمن ذلك يلزم أن يكون سيدنا إبراهيم حين وفاة سيدنا نوح فى الثامنة والخمسين من عمره !

وهذا باطل باتفاق المؤرخين ، والنسخة « اليونانية » و« السامرية » أيضا تكذبانه ؛ لأن ولادة سيدنا إبراهيم بحسب النسخة الأولى كانت بعد وفاة نوح بتسعمائة واثنتين وعشرين سنة .

وبموجب الثانية : بخمسمائة واثنتين وتسعين سنة .

ولما كان من المستحيل العقلى وجود التناقض فى كلام الله - كانت آيات التوراة المتعلقة بهذا البحث محرفة لا محالة !

رأى السيدة فى القرآن وفى دين الإسلام :

قالت السيدة : أجل .. إنى أعلم أن القرآن قد وصل إليكم كما سمع من نبيكم دون أن تطرأ عليه العوارض . قلت : هو كذلك - وعلاوة على هذا فإن المجتهدين عندنا لم يزيدوا شيئا على عقائدنا الدينية مخالفا للعقل والحكمة .

ونحن يمكننا أن نَزِنَ عقائدنا فى ميزان « الحكمة » أما « النصرانية » فإن أبواب الحكمة مقفلة عندها .

قالت : فى الحقيقة إن دينكم موافق للعقل والحكمة وهو من الأديان التى يمكن لكثير من العلماء - الذين جردتهم مسألة التثليث من الدين - قبوله والتدين به .

سر كان مجهولا لدى السيدة :

ولقد توصلت بواسطة هذه الإيضاحات التى وقفت عليها إلى حل إشكال كنت مترددة فى حله .. وذلك أن المرسلين عندنا - فى حين أنهم أنفقوا كثيرا من الأموال وألقوا بأنفسهم فى المهلكات وعرضوها للأخطار رغبة فى دعوة الخلق إلى النصرانية لم ينجحوا تمام النجاح .

وأما حجاجكم وتجارَكم فقد تمكنوا من دعوة ألوف من الناس إلى « الإسلامية » بمزيد السهولة فى كثير من الأماكن التى مروا فيها .

ولقد طالما تفكرت فى سر هذا الأمر وحكمته فلم أهتد إليه سبيلا . أما الآن فقد فهمت أن لطافة دينكم ، وسهولته[١٩٨] وانطباقه على الحكمة قد حمل الخلق على قبوله بهذه السهولة .

وفى الحقيقة .. إن دينكم لا مِرْية فى أحقيته ولا مطعن عليه .

(١٩٨) مما يدل على سهولته وبساطته : « قل آمنت بالله ثم استقم » .. ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ [١١٢ - هود] .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الراحل - رحمه الله - فى ترجمة كتاب « محمد رسول الله » لـ « أتيين دينيه » تحت عنوان : لماذا أسلم دينيه ؟

« ولنعد إلى « دينيه » فنتساءل : كيف ولماذا أسلم ؟ وما الميزات والخصائص التى جعلته يمنح الإسلام من الثقة ما لم يمنحه للمسيحية ؟ لقد كانت الشكوك الكثيرة تدور فى نفسه عندما وقعت فى يده نسخة من مجلة انجليزية ، فإذا به يجد فيها جوابا عن أسئلته إذا قرأ فيها : « لماذا صار بعض الإنجليز وغيرهم من الأوربيين مسلمين » ؟

« ذلك لأنهم كانوا يتلمسون عقيدة سهلة معقولة ، عملية فى جوهرها - لأننا معاشر الانجليز نتبجح بأننا أكثر أهل الأرض تشبثا بالعمل - عقيدة تكون ملائمة لأحوال جميع الشعوب وعاداتهم وأعمالهم ، عقيدة دينية صحيحة يقف بها المخلوق أمام الخالق بدون أن يكون بينهما وسيط » . مقدمة الكتاب ص٣١ .

مسألة الحجاب !

ولكن هناك مسألة واحدة تجعل الناس ينفرون منه ، وتقوم سدا فى وجه حسنه ألا وهى : « مسألة الحجاب » عند النساء ؛ فإنه من الصعب جدا على الرجال والنساء من المسيحيين الذين ألفوا الحريّة وعدم التستر أن يرضوا به(١٩٩).

ولو لم تكن فيه هاته المسألة لأصبح عدد كثير من الخلق الذين يبحثون عن دين لهم – مسلمين(٢٠٠).

قلت : لقد بينت لك أن قاعدة الحجاب فى الشريعة إنما هى : « ستر الشعر » .

قالت : وهذا لا يرضونه ؛ لأنهم متى صاروا مسلمين أجبروا على اتباعه .

قلت : إن المرأة التى لا تستر « شعرها » لا تخرج من الدين وإنما ترتكب إثما .

---

(١٩٩) ليس هناك ماهو صعب على من أقبل على الله بقلبه .. إنه لا يتوقف ليناقش أمرا أو نهيا بعدما أصبحت لديه الاستجابة لله ولرسوله . ولقد كان للوثنيين عاداتهم وتقاليدهم لكنهم بعد الإيمان استجابوا لله ولرسوله ، وكانوا مُثُلا عليا .

(٢٠٠) الرأى أنه عندما تتعارض العادات والأعراف مع مقررات الشريعة فهى مرفوضة خصوصا فى فترات ضعف الأمة واتجاهها إلى الأخذ بأعراف أعدائها ، ولا ينبغى أن يكون تحبيب الإسلام إليهم على حساب القواعد الشرعية والآداب المرعية فمن دخل على الإسلام بقلبه استجاب لأوامره ونواهيه :

وإذا حلّت الهداية قلبا … نشطت للعبادة الأعضاء

وأساس الدين الإسلامى الاعتقاد بوحدانية الله تعالى ونبوة محمد ﷺ . فالشخص الذى يعتقد ويسلم بهاتين القضيتين على أى دين ومذهب كان فهو مسلم ، ولا شرط فى ذلك كلياً .

نعم إن هناك على المسلم بعض تكاليف إلٰهية كالصلاة والصيام .. وهى الفروض التى أمر الحق - سبحانه وتعالى بها ..

وهناك ما نهى الله تعالى عنها مثل : قتل النفس وارتكاب المعاصى . والذين لا يمتثلون أمر الله ، ولا يجتنبون نهيه يكونون من الفاسقين ويستحقون فى الآخرة العذاب الأليم(٢٠١).

ولكن مع ذلك فهم مسلمون . إذ ينالون فى نهاية الأمر جنة النعيم . والله إن شاء عفا عنهم ، وإن شاء عذبهم بقدر إثمهم ثم يُدخِلُهم جنته .

---

(٢٠١) إن الإيمان كل لا يتجزأ وقد نعى الله على أولئك الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض وبين جزاءهم بقوله : ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ﴾ [البقرة : ٨٥] .

والإيمان عقيدة وعمل ، والإسلام طاعة وانقياد والخروج على الطاعة تمرد وعصيان !

ونتساءل : هل يخرج العاصى من الإيمان بمعصيته عند أهل السنة ؟ ونجيب كما جاء فى العقيدة الواسطية : كل من ارتكب كبيرة أو أصرّ على صغيرة يسمى عاصيًا وفاسقا ، وهو كسائر المؤمنين لا يخرج من الإيمان بمعصيته وحكمه فى الدنيا أنه لا يسلب عنه الإيمان بالكلية ، بل يقال : مؤمن ناقص الإيمان ، أو يقال : مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته ، أو يقال : مؤمن عاصٍ . ونحو ذلك وليس بكافر .

وحكمهُ - كما أشارت المؤلفة - فى الآخرة تحت مشيئة الله ، إن شاء غفر له وأدخله الجنة ، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه ، ومصيره إلى الجنة .

هذا والكبيرة كل مافيه حدٌ فى الدنيا أو وعيد فى الآخرة ، أو ترتب عليه لعنة أو غضب أو نفى إيمان .

وبهذا يتبين أن المؤمن العاصى لا يخرج من الإيمان ! وأدلة ذلك مبسوطة فى كتب المطولات .

ولا يدخل بين الله والعبد وسيط ، والمسلمون لا يحتاجون فى استحصال العفو عن آثامهم كالنصارى إلى « القسيس » وليسوا بمجبرين على الذهاب حالا إلى الجامع لأداء العبادة نظير المسيحيين الذين يكونون مجبرين فى عبادتهم للذهاب إلى الكنيسة ، فإذا رغبوا فى التوبة والاستغفار انسحبوا إلى زاويةٍ مَّا فناجوا الحق – سبحانه وتعالى – وليسوا بمجبرين أن يكشفوا ضمائرهم وخفاياهم لغير الله !

وهنا .. وبعد صمت السيدة الطويل عادت إلى التفكر والتأمل بمقتضى لطافتها الطبَيعية وصرت وإياها على اتفاق فى الرأى»!!

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم بقلم المحقق	٥
كلمة لابد منها	
على هامش الحوار الاسلامى المسيحى قديما وحديثا	٦
نساء الإسلام من التركية إلى العربية	٩
الكتاب والكاتبة	١٢
السر فى تأليف هذا الكتاب	١٣
مخطوطة الكتاب	١٥
نساء الإسلام بين النشر بالتركية والترجمة إلى غيرها	٢٠
عرض لما تضمنه الكتاب	٢١
المؤلفة فى سطور	٢٦
مقدمة الكتاب	٣٠
المحاورة الأولى مع نبيلة وراهبة فرنسيتين	٣٧
حديث حول الخدم ووضعهن ومصيرهن	٤٠
اشتراك الراهبة فى المحاورة	٥٤
ما الرأى فى بيع الأطفال	٥٦
طعام الإفطار والمائدة التركية	٦١
عادات رمضانية	٦٢
حوار حول ولادة عيسى « عليه السلام »	٦٨
حوار حول الأناجيل والبشارة بمجيء نبى بعد عيسى « عليه السلام »	٦٩
مشاهدة إحدى صلوات المسلمين	٧٤
صلاة التراويح	٧٥
هل الصلب حقيقة	٧٩

المحاورة الثانية : مع السائحة الإنجليزية التى جمعت
بين العلم والفلسفة ٨٣
القهوة التركية ٩١
حرص الزائرة على تعلم التركية ٩٢
نظرات تأملية ٩٣
تعدد الزوجات ٩٦
سؤال خبيث !!. حول تعدد زوجات النبى ﷺ ١٠٨
تساؤل حول الحجاب ١١٨
فى علم الهيئة ١٣٦
قراءة العيون ١٤٢
وحدانية الله ١٤٨
رأى السيدة فى القرآن وفى دين الإسلام ١٥٣
عود على بدء ١٥٥
الفهرس ١٥٩

رقم الايداع ٥٦٥٦ ـــــ ١٩٩٠.